مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع JALHSS
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences – JALHSS
ISSN: 2414 – 3383 www.jalhss.com
العدد (5) نيسان-ابريل 2016

العُرف المغولي وانعكاساته على المجتمع العراقي

أ.د. عباس عبد الستار عبد القادر الزهاوي
كلية الآداب – جامعة بغداد
بغداد – العراق

الخلاصة

مثلت التجمعات البشرية التي استوطنت العراق أولى المجتمعات التي أنشأت أقدم الحضارات الإنسانية كونها تقع على مفترق طرق التجارة العالمية القديم, فضلاً عن وجود نهري دجلة والفرات فيه مما جعل من أراضيه واحده من أخصب بقاع الأرض آنذاك , ومن ذلك سمي ارض السواد, فكان مطمعاً للغازين وغايتهم المنشودة, مما جعل هذه المجتمعات المتعاقبة تعيش حالة من الضغط المستمرة عهدي الحرب و السلم, إذ تكون في حالة استنفار دائم نتيجة وقوع غزو, أو تحسباً لوقوعه, لذلك كانت خيرات العراق نقمة على سكانه طيلة عهوده التاريخية. وشكلت (بلاد ما بين النهرين) ثقلا سياسيا ,وفكريا على مدى تاريخه الطويل استطاع خلاله دفع الأخطار الخارجية عنه لعهود طويلة ,لكنه وبحلول العام 539 ق. م, وسقوط الدولة البابلية بيد الفرس, أصبح العراق خاضعا للاحتلال الأجنبي لمدة تزيد عن ألف عام, مما ترك آثارا عميقة في المجتمع والشخصية العراقية, ولسوء الحظ انه لم يخضع لاحتلال واحد وانما للاحتلالين في ذات الوقت ,فكان الجنوب الشرقي منه بيد الأسر الفارسية الحاكمة في ايران, أما الشمال الغربي فكان خاضعا للرومان ومن بعدهم البيزنطيين, مما رسخ حالة رافقت غالبية المجتمع العراق وهي تبدل الولاءات, فكلما انتصر طرف مُحتل على حساب الطرف الثاني حتى وجد احد نصفي الشعب العراقي نفسه مجبرا على تبديل ولاءه للطرف المنتصر, مما اكسبه شخصية مزدوجة, ترسخت بمرور الزمن ,وهذه الشخصية ليست حكرا على العراقيين ,وإنما تتسم فيه وتكون أكثر حدة ووضوحا لديه, وهذا الانقسام في الولاء بين موالي للفرس ,وقسم آخر موالي للروم تحول بعد دخول العرب المسلمين العراق, الى انقسام طائفي سني شيعي, تتضح ملامحه على ارض العراق أكثر من غيرة.

Mongols Tradition and the Reflects on Iraqi Society

Prof. Dr. Abbas Abdul Sattar A. Kadir El-Zahawi
College of Literature – Baghdad University
Baghdad - Iraq

ABSTRACT

At the settlement of the Mongols in Iraq and besides to what they were well known of their despising natures and habit, a lot of their natures ,traditions and habits settled with them too, then it mixed with the Iraqi traditions. The most distinguished things at that period, new habits appeared but were despised in behavior of noticeable class of the Iraqi society. The period of the Mongols invasion witnessed the weakness in holding the principles of Islamic law (legitimate) and even committing a crime openly as the crime of sex or seduction during the sacred month of Ramadan. It was clear that the Iraqi society began to stand against the other religions of the minority whether they were Christians or Jews and they began to annoy them by robbing and stealing their possessions. Besides ,what accompanied the Mongols settlement caused disturbance which opposed behaviors which were strange to the Iraqi society, it was attempt of suicide which was nothing but a reflect of despair state. The Iraqi people reached to this state that's due to the injustice and humiliation which they got from the Mongols.

المقدمة

وهو الشيء الذي لاحظه الفاتحين المسلمين مع الأيام الأولى من الفتح مما جعلهم يتعاملون مع العراق معاملة خاصة, للحيلولة دون انفلات الأوضاع الأمنية فيه, ومع ذلك فقد شهد العراق مصرع أول الخلفاء الراشدين الذين انتقلوا إليه عند اتخاذ الكوفة عاصمة للخلافة, ومصرع حفيد الرسول محمد(صلى الله علية وسلم),كما كان العراق كرسيا لحكم أكثر الطغاة هوسا بالقتل, ومنبعا لتزويد الجيش الإسلامي بالجند.

وطرأ تغيير ديموغرافي كبير على مكونات المجتمع العراقي بعد الفتح العربي الإسلامي, فأصبح العرب يؤلفون الطبقة الحاكمة, والتي انصهرت بسكان عراق ما قبل الإسلام مكونين نسيجاً اجتماعياً جديدا غلبت عليه طبائع العرب و الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية, والتي ترسخت في المجتمع العراقي, لاسيما بعد إن أصبحت احد مدن العراق (بغداد) عاصمة للعالم الإسلامي بأكمله ومقر لزعامته والمتمثلة بالخلافة العباسية, غيران ازدواجية الشخصية العراقية في التعامل مع الآخر تسربت لقسم من الفاتحين العرب أنفسهم, فنجد ظهور حركة (الخوارج) أول انشقاق فكري عسكري في صفوف المسلمين, يظهر وبعد سنوات قلائل من دخول المسلمين ارض العراق.

وهذه السمات التي تكونت منها الشخصية العراقية اثر امتزاجها بالشخصية العربية الإسلامية ,لم تتغير إلا بنسب متفاوتة, نتيجة الاحتلالات المتعاقبة للعراق وعاصمته, سواء كان نفوذ تركي, وما أعقبه من احتلالين بويهي ,وسلجوقي, زاد عن القرنين ونصف القرن تقاسما فيه هذه المدة, إلا إن الاحتلال المغولي كان الأشد وطأة رغم انه كان مقارب زمنياً لمدة تسلط البويهيين أو السلاجقة ,وذلك لوحشتيه من جانب, ولتمسكهم بعاداتهم وأعرافهم التي حددها لهم جنكيزخان دون مراعاة ,لأعراف الشعوب المُحتلة ومنها الشعب العراقي.

ولقد استفاضت الدراسات التاريخية الأجنبية ومن بعدها العربية بدراسة المغول واجتياحهم لقارتي آسيا وأوربا, وما أعقب ذلك من دمار وقتل وتخريب, وانهيار لحضارات دامت لقرون على أيديهم وكما لم يفوت البعض من الباحثين ذكر ايجابيات ذلك الغزو على قلتها, وركزوا على تأثر المغول بحضارة الأمم المغلوبة مما أسهم في تحضرهم وتمدنهم ,فضلاً عن تبنيهم ديانات تلك الأمم التي استقروا في أراضيها, من دون إن تعير تلك الدراسات, أهمية كافية للتأثير المقابل الذي تركه المغول وأعرافهم المتوارثة على سلوكيات المجتمعات المحتلة ,كما أنها لم تسلط الضوء على المتغيرات التي طرأت على المجتمعات المحتلة وفق توصيف اجتماعي مقارب لذلك الواقع ومن دون استعراض عقيم احياناً لنصوص متفرقة هنا وهناك, إذ إن قسماً من تلك الأعراف وجدت طريقاً لتمتزج مع أعراف وعادات تلك الشعوب نتيجة الاحتكاك المباشر, فضلاً عن الأسلوب القهري الذي اتبعته القوات المغولية لفرض القواعد والأعراف التي وضعها جنكيزخان للمغول والتي كانت بمثابة دين تمسك به المغول إلى آخر ايامهم.

اما المجتمع العراقي والذي كان جزأ من محيطه العربي الإسلامي, نجده قد انسلخ عن ذلك المحيط فور وقوعه بيد المغول, الذي انحسر في أراضي العراق دون غيره بفضل قوة المماليك التي دفعتهم إلى ما وراء نهر الفرات ولعقود طويلة , مما جعل أعراف المغول تنصهر بأعراف العراقيين إلى حد بعيد, مما أسبغ على طبائعهم طبائع سلبية مكتسبة من طبائع المغول ,أو جاءت كرد فعل طارد لها. فالذي نجا من القتل على يد المغول لم ينجو من التشوه في طبائعه وعاداته وسلوكياته في ظل احتلالهم.

ستركز الدراسة على محورين, الأول يتعلق بأعراف المغول, في حين تعلق الثاني يتعلق بانعكاساته على المجتمع العراقي والضرر الذي أحدثته تلك الأعراف على سلوكيات أفراده وإيجاد توصيف اجتماعي للمجتمع العراقي وفئاته إبان الاحتلال.

وأخيرا فأن هذه الدراسة هي محاوله لفهم ,وتفسير سلوكيات المجتمع العراقي ,من خلال ابرز النظريات الانثروبولوجية المعاصرة ,ومدى تأثره واستجابته لعادات وتقاليد المغول وأعرافهم, في ظل صراعها مع الشريعة الإسلامية المتجذرة في المجتمع العراقي مدة سبعة قرون سبقت الاجتياح المغولي للعراق.

المبحث الأول
أعراف* المغول وعاداتهم

قبل القفز إلى أعراف المغول وآثاره على المجتمع العراقي فمن الحري بنا معرفة البيئة التي ولدت بها هذه الأعراف والعوامل التي أسهمت في تمسك المغول بها.

فتعد هضبة منغوليا بقسميها الجبلي والصحراوي الموطن الرئيس لهذه القبائل التي كانت تستقر في الشتاء في سهولها ومناطقها الدافئة حيث يتوفر المرعى لحيواناتهم, وفي الصيف يستقرون في المرتفعات وأعالي الجبال لمدة شهرين أو ثلاثة حيث تكون المنطقة باردة, وتتوفر فيها المياه والمراعي, ومناخ هذه الهضبة قاري مما يؤدي إلى تجمد أنهارها ,بالإضافة إلى الرياح الشديدة التي تهب من المنطقة الجبلية في سيبيريا الواقعة في شمالها وتنعكس في فصل الصيف حيث ترتفع الحرارة وتهب الرياح المحملة بالرمال (1).

في مثل هذه البيئة القاسية كانت القبائل تجري وراء المياه القليلة في صحراء(جوبي) التي يعني اسمها الجذب والفقر, فجوبي لفظ مغولي معناه الصحراء الجدباء الخاوية (2).

فلا غرابة إذا انعكست هذه القسوة على سلوك هؤلاء الناس سواء في معاملة بعضهم البعض أو في علاقاتهم مع الآخرين ,وظهروا للعالم بهذه الصورة البشعة التي عرفوا بها مع مرور الزمن (3).

فنجد إن المؤرخ الفارسي الأصل المغولي الأهواء والمتكلم بلسانهم الجويني يقدم أفضل وصف لأحوالهم كونه كان مرافقاً للمغول في حملة هولاكو على المشرق الإسلامي ,ونائب الايلخانيين في حكم العراق لمدة تربوا عن عشرين عاماً يشير بأنهم " أقوام يعيشون في واد غير ذي زرع. وحتى خروج جنكيزخان لم يكن لهم حاكم يجمعهم ,بل كانوا مفرقين قبائل لكل قبيلة أو قبيلتين رئيس ,ولم يكن هؤلاء الرؤساء في سلم بينهم وعلى العكس كانت الخصومة والبغضاء تفرقهم, وكانوا امة تعيش على السرقة والعنف, والفسق والفجور, لباسهم جلود الكلاب والجرذان, طعامهم لحومها, وغيرها من الحيوانات الميتة وشرابهم ألبان البهائم. وعلى هذا فهم في ضنك من العيش ووبال وسوء حال حتى علت راية جنكيز خان فتحول الضيق إلى نعمة وانتقلوا من السجون إلى البساتين ومن الصحاري إلى القصور, ومن العذاب المقيم إلى جنات النعيم, وغدت ألبستهم, وأطعمتهم فاكهة ولحم طير" (4).

في حين وصف القرماني حياة المغول بقوله "هم رجال يسكنون الخيام، وأكثر دوابهم الخيل, وأقواتهم الأرز والبان الخيل ولحومها, وتعرف ملوكهم بالخان، وهم قبائل وشعوب وأصناف وضروب, وكل طائفة تعد غارتها وتقصد جارتها وتلعن أختها وتنهب تختها وتأكل رختها, لا يعرفون الحلال والحرام, ويعبدون الأوثان والأصنام, وافخر ملبوسهم جلود الكلاب والنموس, ويأكلون الكلاب والفار, وما وجدوا من صيد القفار" (5).

ومن هذا الوصف الذي قدمه جويني, والقرماني يمكننا إن نتصور حياة هذه الأقوام البدائية التي اعتادت الإغارة على بعضها البعض, والاقتتال فيما بينها, كما استخدموا كمرتزقة لدى الممالك المجاورة, هذه القبائل المتناحرة وقدر لها إن تتوحد تحت قيادة واحدة لتصبح بدورها أمة واحده, وهذا القائد الذي كان يفوق قومه عقلاً ,وحكمةً ,وقسوةً ,وطمعاً ,استطاع توحيد قبائل المغول, وتحويلهم إلى أداة طيعة بيده لتحقيق أحلامه في إنشاء إمبراطورية لا يمكن إن يحدها إلا مياه البحار والمحيطات, ووضع لذلك منهجاً يسير عليه, أولاده وأحفاده من بعده, وفي مدةً لم تتجاوز العشرين عاماً أصبح هذا الحلم حقيقة ملموسة, فتحولت مساحات شاسعة من آسيا وشرق أوربا إلى مقاطعات يحكمها جنكيزخان وأولاد ,وليعيش ما بقي من سكانها في أوضاع لم يعهدوها من قبل فتحولت مقدرات حياتهم بين ليلة وضحاها بيد قبائل بدوية رعوية لم تعرف طعم التحضر, أدمنت السلب والنهب وسفك الدماء, مُحدثة تغييراً بما حملوه من طبائع وعادات على تلك الأمم المحتلة فامتزجت عاداتهم مع أعراف سكان تلك الدول المتفوقة عليهم حضارياً بقرون مُحدثين تغيرات اجتماعية سريعة على أخلاق وطبائع تلك الشعوب.

وذكر لنا المؤرخ الفرنسي (جوانفيل) والذي كان مرافقاً للقديس لويس التاسع في حملته الأولى على البلاد الإسلامية (648-652هـ/1250-1254م) نقلا عن الرسل الذين زاروا بلاد المغول ممن أرسلهم لويس التاسع ,"كانت طريقة التتار في العيش أنهم لم يأكلوا خبزاً قط بل كانوا يتقوتون باللحم والحليب فقط, أفضل أنواع اللحم لديهم هو لحم الخيل الذي كانوا ينقعونه بالملح, ثم يدعونها تجف إلى درجة يمكنهم تقطيعها مثلما يقطع الإنسان

الخبز الأسود, وكان شرابهم المفضل هو حليب إناث الخيل, واكل الناس لحوم كل أنواع البهائم التي كانت تموت في معسكرهم, وكانت النسوة اللائي لديهن أطفال يقمن برعاية الأولاد وحفظهم من الأذى أو تجهيز الطعام للرجال عندما يذهبون إلى القتال وكان الجند يضعون اللحوم الغير مطبوخة بين سروج خيولهم وأطراف معاطفهم وعندما يكون الدم قد خرج تماماً من اللحم يأكلون هذا اللحم كما هو نيئاً ,والذي لا يمكنه أكله تلك الساعة, كانوا يرمونه في حقائب من الجلد وعندما كانوا يشعرون بالجوع كانوا يفتحون حقائبهم ويأكلون القطع الأقدم دوماً" (6).

أما ديانتهم فقد ذكر ابن العبري بأنه "لم يكن للمغول في أول الأمر كتاب ولا دين خصوصي لكنهم عرفوا الاهاً واحداً خالق الكل, وكان بعضهم يسمون السماء الهاً ويعتقدون هكذا حتى تغلبوا على الأتراك الايغوريين وصادفوا بينهم سحرة، فلما شاهدهم المغول على تلك الصورة مالوا إليهم بقلب سليم" كما كان أمرائهم يجثون على ركبهم ثلاث مرات للشمس عند يقطعون امرا مهماً (7).

ونستطيع القول إن أعراف المغول وعاداتهم قد تأطرت عهد جنكيزخان (600-624هـ/1203-1227م) الذي وضع نظاماً سار عليه المغول, ولم يحيدوا عنه إلا في حقبهم المتأخرة, بل إن قسما منها تبنته شعوب الدول المحتلة حتى بعد تخلصها من مغول الجغتاي وبعد قرن ونصف كما حدث في آسيا الوسطى فقد ظلت الياسا متبعة من قبل سكانها الأتراك بقرن ونصف, إذ اعتمدها الغازي التركي تيمورلنك لضمان ولاء وتبعية جنده رغم ادعاءه الإسلام (8).

وأوضح الجويني ذلك بقوله "كانوا على عادات ذميمة فاخذوا بإزاحتها من أعرافهم فما كان يقبله العقل أمر جنكيزخان بإثباته وكثير من هذه الأعراف الحميدة تطابق الشريعة (9), ويقصد هنا بالأعراف الحميدة كبر الوالدين ,والتقليل من شرب الخمر, ويسميها ابن العبري "شرائع حسنه كالنهي عن الغدر والأذى وعن مقابلة السوء بالسوء وعن قتل الحيوان الصغير كالقمل والبق" (10).

أما السبب الذي حدا بجنكيزخان إلى وضع قانون موحد للمغول هو وقبل كل شيء كان لإخضاعهم لأرادته, وضمان طاعتهم له, فأشار اليونيني"وكان جنكيزخان بمنزلة النبي لهم" (11) ,أما السيوطي فذكر انه "أحتل المكانة التي أحتلها الخليفة لدى المسلمين" (12).

كما رسم للمغول في الياسا نسق اجتماعي يمكن إن يسيرون عليه فاحتوت قوانين تنظم الحياة الأسرية والعسكرية, ووضع عقوبات تصل في كثير من الأحيان إلى الإعدام في حال مخالفتهم لهذه القوانين, والتي أطلق عليها (الياسا) أو (الياسة جنكيزخان) , ومعنى (الياسا) النواهي أو المحرمات والزواجر, أو الواجبات التي لا يصلح التهاون معها (13).

وأشار الجويني إلى وضع جنكيزخان الياسا بقوله "حين منحه الله تعالى العقل والمعرفة فاق بهما أقرانه, وهبه القدرة والتسلط على ملوك الدنيا شرع يبحث في عادات الأكاسرة والجبابرة, ورسوم الفراعنة ,والقياصرة ثم أخذ يقتفي في ذات نفسه عن قانون يحفظ بهما نظام مملكته وينتصر على خصومه يجمعها من العادات ويستنبطها من الخاطر" (14).

وذكرها ابن كثير "هي التي يتحاكمون إليها ويحكمون بها وأكثرها مخالف لشرائع الله وكتبه وهو شيء أقترحه من عند نفسه, وتبعوه في ذلك, وآدابهم الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة" (15).

والمح جوانفيل إلى أهمية القانون الذي وضعه جنكيزخان "وكانت شرائع الرجل العادل التي أصدرها لهم تستهدف الحفاظ على سلام شعبه ، فلا يجوز لأحد الاستيلاء على حوائج إنسان آخر، كما لا يجوز لإنسان معاشرة زوجة إنسان آخر, كما أصدر شرائع أخرى جيدة من اجل الحفاظ على السلام بين رعاياه" (16).

علماً إن مثل هذه الضوابط كانت تقتصر على المغول فيما بينهم فقط وتختفي عند معاملتهم للشعوب الأخرى, فكل شيء يصبح مباحاً .

وأضاف جوانفيل "واخبرنا رسل الملك أن الرجال والنساء من الجند كانوا يتناولون وجبات أطعمتهم معاً في محلات قادتهم الذين عملوا تحت خدمتهم, ولم يتجرأ الرجال طاعة منهم للشريعة التي أقامها الملك الأول على المغامرة بإقامة اتصالات مع النساء" (17) وهنا نجد خوف مقاتلي المغول من التحرش أو الاعتداء على نساء جلدتهم تطبيقا لتعاليم الياسا في حين لم تضع هذه الياسا إي محاذير على الاعتداء على نساء البلدان المقهورة.

فقسم ليس بالقليل من قوانين الياسا وضعت لتنظيم الحياة الاجتماعية بين المغول ووضع عقوبات لكل الممارسات الغير أخلاقية التي كانت تحدث بين قبائل المغول قبل عهد جنكيزخان فذكر القرماني بهذا الخصوص "فأمر عقلاء مملكته, وأذكياء قبيلته أن يضعوا خطاً وقلماً,يكون علماً وعلماً,فوضعوا له قلم المغل ورتبوا له كتابا سماه(الياسق)الكبير ذكر فيه ما أقتضاه رأيه التعيس وفكره الخسيس, لكل حسنة مثوبة ولكل سيئة عقوبة, فمن أحكامها المظلمة صلب السارق وخنق الزاني, وان شهد بذلك واحد فلا يحتاج إلى ثان, ومنها احقية من سبق سواء كذب أو صدق, ومنها استعباد الأحرار ,وتوارث الفلاح والاكرار, وتوريث نكاح الزوجة لأقارب الزوج وتداولهم فوجاً بعد فوج, وعدم حصر الزوجات في عده, والأخذ بقول الجواري والصبيان, ومطالبة الجار بالجار, ومعاقبة البريء بمرتكب الأوزار, وعدم عفو الحاكم وان عفى المظلوم عن الظالم, ونحو هذه الخرافات الباطلة والهذيانات العاطلة من القواعد الملعونة على خلاف الشريعة الميمونة" (18).

كما حوت الياسا تقسيمات الجيش وتدرج قياداته العسكرية ابتداءاً من قائد العشرة آلاف(النويان) او(النوين) وانتهاءاً بآمر العشرة أفراد(نباشي),ومن اللافت إن جنكيزخان في قانونه هذا منع أن يتصل قائد النويان بآخر مثله (19) ولعله أراد من ذلك عدم حدوث أية اتفاقات عسكريه بين قادة الجيش أو حدوث أي تمرد قد يفضي بالمستقبل إلى انقلاب عسكري ضده. وكان يعاقب كل من لا يسمع كلام أبيه من الأولاد ,والأخ الأكبر من باقي الأخوة ,والزوجة لزوجها. وجاء فيها أيضاً أن من يدير بيته أحسن تدبير يتمكن من إدارة المملكة, ومن أدار عشرة أفراد, وأحسن سوقهم, تيسر له سوق جيش عظيم (20).

ويمكننا القول إن هذه الأعراف بعد أن طبقت على مجتمع القبائل المغولية, الرعوية والمقاتلة بالدرجة الأساس ,كان لها الدور الأكبر في انتصارات جنكيزخان ولولاها لكان من المتعسر بل من المستحيل أن يستطيع جنكيزخان أو غيره قيادتها لفتح العالم ,ولتظل هذه الأعراف سارية المفعول حتى وهو في قبره, والواقع أنه دون أعراف المغول السابقة واستبعد منها كل ما يمكن أن يتسبب باقتتال داخلي من خلال عقوبات رادعه, فضلاً عن اقتباسه كل ما يمكن أن يتلاءم مع طبائع المغول من البلدان المجاورة, وما يجعل قبائل المغول تتتبع قيادة مركزية صارمة تمكنها من أن تصبح إمبراطورية عظيمة في قابل الايام.

ودونت هذه الأعراف بالخط الايغوري, والايغور هم من أكثر الأقوام الشرق آسيوية تمدناً,وجعل لها صفة رسميه, وأمر إن تحفظ في خزائن أمراء المغول وقد أطلق على كل حكم من هذه الأحكام والقواعد (ياسا) وهي كلمة مغولية تأتي بمعنى حكم أو قاعد هاو قانون وقد تعود المغول إن يرجعوا إلى نصوص الياسا في اغلب قضاياهم التي قد تطرأ عليهم فيحتكمون إليها, ويعملون وفق ما تشير به وقد أصدر جنكيزخان هذا القانون عام603هـ/1206م عقب انتخابه خاناً(21).

وكان من مقررات القورليتاي (مجلس أمراء المغول الكبار) أيضاً الاعتراف بسيادته على جميع قبائل المغول, ومنحه لقب جنكيزخان(22) وهكذا أصبحت قوانين الياسا مناراً أهتدى به أبناء جنكيزخان وأحفاده, وكان تنفيذ تعاليمها واجباً مقدساً في أغلب الأحيان ,فنجد أوكتاي خليفة جنكيزخان يصدر امراً فور توليه عرش الإمبراطورية بأن تحفظ جميع نواميس جنكيزخان ومراسيمه وصرح بأن من يخالفها يقتل قتلاً (23) . ومن ابرز عادات المغول التي تركت أثراً لم يمحوه الزمن على سكان الشعوب الذين وقعوا فريسة لغزواتهم.

أولا :القتل والسلب والتنكيل

رافقت غزوات المغول عمليات قتل فضيعة وصلت في بعض الأحيان حد الإبادة الجماعية ,فقد أباحت الياسا جنكيزخان قتل الأعداء من سكان الشعوب الأخرى ممن وقفوا ضد أرادة الغزو وبمختلف مسمياتهم, رجالاً كانوا أم نساءً ,أم أطفالاً, والواقع إن غرض جنكيزخان من ذلك هو تقليل أعداد سكان تلك المدن قدر المستطاع ليسهل السيطرة عليها, وكي يتمكن من وأد أي حركة للمقاومة تظهر في قابل الأيام, ونتيجة لهذا الإجراء فقد انخفضت أعداد سكان المدن المفتوحة من قبل المغول بشكل مخيف فذكر ابن الأثير بهذا الخصوص "لو قال قائل إن العالم مذ خلق الله آدم إلى ألآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فانا لله وإنا إليه راجعون"(24).

كما أوضح ذلك جويني "ولما بطرت أغلب هذه الأقطار واستقبلت البطل بالعصيان ولاسيما الديار الإسلامية, من حدود تركستان إلى أقصى الشام, فحيثما وجد أمير أو نائباً لبلده خالفه فأنه يزيله هو وأهله وحاشيته, وأمته من الوجود ولم يبق من كل مئة ألف مخلوق إلا مئة من غير مبالغة "(25),واللافت إن ما جاء في الياسا يفسر القسوة المفرطة التي امتازت بها القوات القتالية للمغول, فأورد ابن فضل الله العمري بهذا الخصوص "من اطعم أسير قوم أو كساه, أو سقاه بغير أذنهم قتل ,ومن وجد هارباً أو أسيراً ولا يرده (يقتله) قتل"(26).

ويبدو إن جنكيزخان استند في استنباط هذا الحكم إلى تعاليم الديانة الشامانية ,وهي الديانة التي تبناها المغول في بداية أمرهم قبل اقتباسهم من ديانات الشعوب المحتلة, والتي تجعل القاتل يزداد منزلة يوم القيامة بازدياد عدد من قتلهم"(27).

أما على أرض الواقع فقد كان للمغول صولات وجولات لا يمكن إن ينافسهم أحد في هذا المضمار فعند محاصرة جنكيزخان لمدينة سمرقند وبعد إن طلب المُحاصرون الأمان وفتحوا أبواب بلادهم ,وبعد إن سلموا أسلحتهم قتلوا عن آخرهم (28).

ولجأ المغول إلى مالم يعمده غيرهم من الغزاة من قبل إلا اللهم ما نسى إن يذكره التاريخ لنا, فعند حصارهم لمدينة خوارزم, وبسبب مقاومة السكان لهم, وانتقاماً منهم قاموا على اثر دخولهم للمدينة بفتح سد للمدينة على نهر جيحون, فأغرقت المدينة بسكانها(29).

ووصف القرماني احتلالهم لمدن المشرق الإسلامي بقوله "وأظهروا فيها علامات الحشر فأدهشوا وعلها وسكوا أهلها فقتلوا الخاص والعام, ومدوا إلى ذخائريها النهب العام " (30).

وعند دخول المغول مدينة بخارى عام617هـ/ 1220م بين القرماني تعامل جنكيزخان مع سكانها "فلما أستخلص ما عندهم من الأموال, أمر بقتل الرجال ,وأسر النساء والأطفال, ثم أمر بالنهب وهدم البلد والإحراق " (31) فدخل المسجد الجامع الفخم بفرسه ووقف إزاء المنبر, ثم صعد المنبر ودعى المغول الذين يقفون خلفه إلى إن يطعموا خيولهم وكان العلف قد عد, ولنا إن نتصور كيف تلقفوا الإذن لهم بأعمال النهب في المدينة بمسرة بالغة, ولم يكتفوا بنهب كل دار وكل قطمر بل حملوا معهم كل من صادفهم من أنواع المتاع فلم تفلت من أيديهم الآثار المقدسة مع قلة قيمتها المادية, كما مزقوا المصاحف واتخذوا من أوراقها فرشاً لدوابهم, وسيق كبار الشيوخ والعلماء البارزون ليقوموا بخدمة الجند في مجالس الشرب, ولما كانت أبنية بخارى أغلبها من الخشب, لم تمض إلا أياماً قليلة حتى تحولت كلها إلى رماد, إلا بعض مساجد وقصور مبنية من الخشب ظلت قائمة بين خرائبها, وانقلبت المدينة العامرة إلى كومة من الأطلال, وعندما سئل الخُرسانيين احد الفارين من بخارى عن المغول قال "آمدند, وكندند, وسوختند, وكشتند, ورفتند, أي هجموا, وهدموا, واحرقوا, وأرهقوا, ونهبوا, وذهبوا"(32).

كما قام المغول أيضاً بقتل جميع سكان مدينة خوارزم ,أما أرباب الحرف فقد أرسلوا إلى الأقاليم المغولية للاستفادة من خبراتهم (33), ومن ذلك أيضا قيام المغول بقتل أكثر من أثنى عشر الفاً من الإسماعيلية النزارية في إيران من المستسلمين بحجة إحصاء عددهم(34).

وذكر لنا مصدر ارمني فظاعة المجازر التي ارتكبها المغول بحق أهالي حلب بقوله "وأقترف المغول بسيوفهم مجازر رهيبة ضد المسلمين وقتلوهم دون رحمة أو شفقة, وما من أحد يمكنه إن يصف المجازر بحكم فضاعتها,واتساع المساحة التي انتشرت فوقها الجثث"(35) .

وكان من عادة المغول بعد إخضاع المدن قيامهم بإحصاء من بقي من سكانها ثم يوزعون على الجند ليقوموا بقتلهم ,كما حدث في مدينة ترمذ وقلاع الإسماعيلية النزارية وبغداد وغيرها ,وفي إحدى المدن كان نصيب كل جندي 24 شخصا" (36) وذكر الجويني إن سيدة توسلت إلى الجندي الموكل بقتلها إن يطلق سراحها نظير جوهرة كبيرة قد ابتلعتها ,هنالك عمد المغولي إلى شق جوفها بدلاً من إطلاق سراحها, وحين بان له صدق قولها صدرت الأوامر على الفور بشق أجواف الموتى بحثاً عما عساه يكون بها من الجواهر"(37).

ويمكننا الجزم إن السبب وراء قيام المغول بقتل غالبية السكان هو لضمان عدم قيام أي ثورة ضدهم فيها, وذلك من خلال القضاء على مادة الثورة وهم الرجال وهذا يفسر ندرة الثورات التي قامت ضدهم في المدن التي سيطروا عليها خاصة عهد جنكيز خان.

أما مدينة (نسا) وهي كوره من كور خراسان قام المغول بقتل سكانها بشكل جماعي بعد إن ساقوهم إلى خارج المدينة فذكر النسوي "فساقوهم إلى فضاء وراء بساتين، ولم يمد التاتار أيديهم إلى سلب ونهب إلى إن حشروهم إلى ذلك الفضاء الواسع بالصغار والنساء ,والصياح يسد منافذ الهواء, ثم أمروا الناس إن يكتف بعضهم بعضا ً,ففعلوا خذلانا ً,وإلا فلوا تفرقوا وطلبوا الخلاص عدوا ً من غير قتال والجبل قريب لنجا أكثرهم, فحين كتفوا جاؤا إليهم بالقوس, وأضجعوهم على العراء, وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهواء, فمن دماء مسفوكة, وستور مهتوكه, وصغار على ثدي أمهاتها المقتولة متروكة، وكان عدة من قتل بلسان أهلها سبعين الفا ً" (38).

ومن المسلمات التي كان يتبعها المغول في المدن المُحتلة والتي يمكن إدراجها في خانة السلب هي تهجير العقول الكفؤة إلى مدنهم الكبرى للاستفادة من خبراتهم, فكانوا يقومون بنقل أصحاب الحرف والصناعات إليها وخصوصا (قراقورم) (39),وهو ما حدث عند احتلالهم مدينة خوارزم سنة617هـ/1220م على عهد جنكيزخان ونقلوا إلى منغوليا, وكذلك مدينة ميافارقين على عهد هولاكو (40) .

وبالنسبة لسمرقند التي احتلت عام618هـ/1221م فقد "نشم التتر في السبي والنهب "على حد قول ابن العبري وقتلوا غالبية سكانها(41),اما مهرة الصناع , وخاصة نساجو الحرير والقطن منهم, فقد الحقوا بخدمة زوجات جنكيزخان وأقربائه بوصفهم أرقاء نافعين,أو سيروا مع الخان نفسه إلى خراسان, ومنهم من أرسل إلى جغتاي, واوكتاي أولاد جنكيزخان(42) وتكاد هذه الفئة تمثل الفئة الوحيدة التي سلمت من القتل وإنما كانوا يتعرضون للأسر ومن ثم الترحيل إلى مدنهم المركزية.

وصور المستشرق الفرنسي غروسيه طرق تعامل المغول مع سكان المدن المفتوحة بقوله:" يتم أخلاء المدينة من السكان لتسهيل عملية السلب والقتل الجماعي لمن بقي في المدينة ,ويتم ترحيل الحرفين الماهرين خاصة إلى منغوليا للاستفادة من خبراتهم" (43).

ولقد ظلت عادة السرقة ملازمة لجنود المغول إلى أواخر عهودهم, حتى بعد خضوع البلاد لهم بالشكل الذي ينتقص من هيبة الخان المغولي الذي أعلن نفسه حاكما لجميع السكان, لذا كان يضع عقوبات رادعه لمن يقوم بهذا العمل من دون تصريح من الخان نفسه(44).

ويحكي لنا ابن شداد عن طبائعهم الفظه وأساليبهم الخشنة حتى مع الوفود المفاوضة التي كانت تتمتع بالحصانة والأمان الدبلوماسي في مقابلته ليشموت بن هولاكو إذ قام المغول أثناء أقامتهم في معسكره في بلاد الجزيرة تعرضوا للضرب بالعصي هم ودوابهم , وأحرقوا وقطعوا احد الأثواب التي جلبوها كهدية للأمير ,وفي اليوم التالي مرروهم على قتلى وقالوا لنا إن لم تكونوا عقلاء و إلا كنتم مثل هؤلاء (45), وكان للمغول طرق وحشية لتنفيذ القتل بحق الأشخاص الذين يبغون الانتقام منهم كما هو الحال لحاكم مدينة أُترار (اينالجق) الذي قام بقتل تجار قدموا من بلاد جنكيزخان بتهمة التجسس وباع بضائعهم عام615هـ/1218م,كما تمكن من مقاومة حصار المغول طيلة خمسة أشهر(46) فذكر النسوي طريقة قتله "احضر إلى جنكيز خان وأمر بسبك الفضة وقلبها في إذنيه وعينيه فقتل تعذيبا ً جزاء عن فعله" (47) "وتعرضت المدينة للقتل والسلب ونهبت جميع الأقمشة والأمتعة هناك" (48).

وكذلك عند اقتحام جيوش المغول مدينة (ميافارقين) إحدى مدن ديار بكر التي قاومت حصارهم عامين كاملين وعندما استسلمت قام يشموت بن هولاكو بإرسال حاكمها الكامل الأيوبي إلى والده هولاكو "فأمر بتقطيعه أربا ً أربا, كانوا يضعونها في فمه حتى هلك في عام657هـ/1259م وكان رجلا ً زاهدا ً عابداً,"(49) وعلق رأسه على سور باب الفراديس بدمشق"(50).

كما تعرض البروانه وزير السلطان السلجوقي والحاكم الفعلي لسلاجقة الروم في آسيا الصغرى إلى طريقة في منتهى الوحشية فقد اتهم بخيانة المغول الايلخانيين ومواطأة المماليك إلى طريقة قتل بشعة فقطعت إطرافه الأربعة وسلق في مرجل (قدر كبير) وأكل المغول لحمه (51) كنوع من أنواع الانتقام وشفي الغليل.

ثانيا ً :المصايف والمشاتي

مما لاشك فيه إن لكل مجتمع خصوصيات تميزه عن بقية المجتمعات الأخرى, فكان من ابرز خصوصيات مجتمع المغول هو اتخاذ مدن لدرء حر الصيف وأخرى لدرء برد الشتاء, وكان هذا السلوك متبع منذ عهد جنكيزخان, ولازم ذلك إجراءات وترتيبات كثيرة لإنجاح ذلك التخييم ذلك التقليد الذي حافظ عليه المغول في كافة

أرجاء الإمبراطورية المغولية المتمثلة بأقسامها الأربعة, إلى أواخر أيامهم, والذي ربما أراد به جنكيزخان عراب المغول الحفاظ على طبائع المغول البدوية التي تتسم بالترحال والغزو المستمر ,والابتعاد عن حياة الاستقرار, واقتباس حضارة الأمم الأخرى, فالاستقرار مرادف للتحضر ,وهي المرحلة التي تسبق مرحلة الضعف والاضمحلال.

والمعروف عن المغول إنهم كانوا يسكنون الخيام كما هو متبع عند البدو وكانوا يسمون أماكن أقامتهم في المصايف والمشاتي "يورت" أو "أوردو"وجرياً على هذه العادة كانوا يختارون أماكن معينه يقضون فيها الصيف, يقال لها (بيلاق)وأخرى يمضون فيها الشتاء تسمى(قيشلاق) واستمروا يسيرون على هذا التقليد حتى بعد إن فتحوا كثيراً من البلاد المتمدنة واضطروا إلى سكنى العواصم, وكانت هذه الخيام التي توضع في مدن المصايف والمشاتي تتخذ صفة مدينة كبيره ,إذ يصطحب الخان معه جميع الطوائف من قواد الجيش إلى القضاة والكتاب والصناع والتجار وغيرهم, وكان أرباب الحرف والصناعات يزاولون عملية البيع والشراء ويمدون هذه المدن المتنقلة بما يلزمها من الحاجيات"(52).

وفي العراق فقد اتبعت الدولة الايلخانية هذا السلوك الجنكيزخاني بحذافيره, فكان الايلخان عند مشتاه في بغداد (53) ينتقل مع زوجاته وكبار أمراءه وينصبون الخيام حتى تصبح مدينة متسعة الجوانب, وتنصب فيها أسواق, وخيم للعبادات المختلفة وعندما يغادرونها يقومون بإحراقها لم يتولد فيها من الأفاعي والحيات ولا يبالون بالمبالغ الطائلة التي صرفت عليها (54) .

وعدت بغداد عهد الدولة الايلخانية أحدى أهم المشاتي التي كان ينتقل إليها الخان من مقره في تبريز, فقضى فيها آباقا خان الشتاء (663-680هـ/1265-1282م) عدة مرات (55) وكذلك فعل آرغون بن آباقا (683-690هـ/1284 -1291م)بقصد تمضية الشتاء وكان يؤيده عشرة آلاف جندي من القراوانه الذين كانوا يشتون في بغداد ويصيفون في ساه كوه في الربيع عاد آرغون من بغداد إلى خراسان"(56) وما قام به السلطان محمود غازان (694-703هـ/1295-1304م)سنة 698هـ /1298م من زيارة لبغداد (57) .

وكان لهذا العُرف آثاره السيئة على المجتمعات المدن المحتلة من قبل المغول إذ يؤدي إلى إن ترتفع الأسعار في بعض المدن التي يختارها الخان للاصطياف أو لقضاء الشتاء(58), فتغلوا الأسعار حتى يصبح الشيء بقيمة مثلية أو أكثر لكلفة الحمل ومشقة السفر(59),وكان هذا الأمر يعاني منه أهالي بغداد إذ ينعكس سلباً على الطبقة الدنيا من المجتمع, ولاسيما إن الطبقة الفقيرة كانت تمثل الشريحة الأعظم من المجتمع العراقي عموماً والبغدادي خصوصاً,مما يترك ظلاله القاتمة على شتاء العراقيين الذي تقل فيه المحاصيل الزراعية أصلا, مما دفع بالبعض منهم إلى كسب قوت يومهم بالاستجداء أو بطرق غير شرعية, كما إن الأعداد القادمة مع الايلخان المغولي وتخييمهم داخل مدينة بغداد, كان يخلق نوعاً من الاضطراب الحضاري الناشئ من تداخل الحياة البدوية والحضرية معاً,فضلاً عما يخلفه ذلك التخييم وبتلك الأعداد الغفيرة من القوات العسكرية المغولية من أشعار العراقيين وتذكيرهم بالاحتلال المغولي وبكل سلبياته وهمجيته داخل عاصمتهم التي كانت يوماً قلب العالم النابض بالحضارة.

ثالثاً الأفراط في الشراب

مما تجدر الإشارة إلية إن الياسا جنكيزخان نهت عن الإغراق في شرب الخمر فقال "إن الرجل السكران كالرجل المضروب على رأسه يفقد عقله ,وكفاءته, فأشربوا ثلاث مرات في الشهر الواحد لا أكثر, والأفضل إلا تشربوا أبداً,ولكن من الذي يستطيع الإحجام عن الشرب مطلقا (60), ومرد هذا التناقض في هذه القاعدة العُرفية في الياسا هو عدم رغبة جنكيزخان في إن يشرع شيئاً لان المشرع نفسه والمتمثل بشخص جنكيزخان لا يستطيع إن يعمل به, فترك باب الاجتهاد الشخصي مفتوحاً في هذا المجال.

ونقل ابن فضل الله العمري عن احد المواطنين المُعاصرين لسلاطين الدولة الايلخانية إن لملوك هذه المملكة وأمرائها ميل إلى الشرب فملوكها اشتغالهم كله بلذاتهم"(61) ومن اللافت للانتباه إن اغلب ملوك هذه الدولة أدمنوا شرب الخمر بل إدمان الشرب أودى بحياة أعظم ملوك هذه المملكة نتيجة الإفراط في الشرب وهو آباقا خان, عقب هزيمته مع المماليك فأصيب بداء هذيان السكارى قبل موته (62).

رابعاً الصيد

عد المغول الصيد جزءً من حياتهم وحرصوا على ممارسته منذ الصغر, وهي من الأمور التي أكد عليها جنكيزخان فلم يكن الغرض منه الصيد, ,وتعويدهم الفروسية, ورمي النشاب, والضرب بالسيف, واعتياد القتل, وإراقة الدماء وإنما تمرين عساكره واستمرار أوامره وإدمانهم على استعمال السلاح وألا يتوقف الجيش مطلقا ً,فهو أما إن يتدرب على العمل الحربي, وأما إن يتوجه إلى الصيد أو القنص(63), وعلق بارتولد على ممارسة المغول للصيد بقوله "بأنها وسيلة من الوسائل ألقيمة التي تعمل على حفظ النظام الحربي, وتدريب الجند واختيارهم, وفيها يراعى جميع الأوامر الخاصة بالنظام الحربي, وبالدقة نفسها إبان التي تراعى إبان الحرب (64).

ولقد كان لهذه العادة المغولية تأثيرها المحدود على عادات أفراد المجتمع العراقي الذي كانت تشغله عن ذلك ظروف الحياة المعاشية اليومية, ومع ذلك نجد انه في عام686هـ/1287م "اشتد اهتمام عوام بغداد بقتل السباع حتى شبت بسبب ذلك فتن وحروب بين المحلات فتدخل الديوان وأمر بحرقها ومنع الناس من الخروج لقتلها" (65).

خامسا : الاعتقاد بالسحر والتنجيم

من أعراف المغول القديمة اهتمامهم بالسحر والتنجيم ومرد ذلك بحسب ما أورده جويني "ولما لم يكن للمغول علم أو معرفه فقد كانوا منذ القدم يولون كلام القرآن أهمية بالغه, ومازال الأمر حتى الآن يؤمنون بهذه الادعاءات فلا يشرعون بعمل مصلحة مالم ينالوا الإذن من هذه الفئة(66),ومنذ احتلال هولاكو خان لإيران والعراق كان شغوفا ً بعلوم النجوم وليس أدل على هذا الشغف انه عهد إلى العالم الرياضي الفلكي نصير الدين الطوسي ببناء مرصد كبير في مدينة مراغه بأقليم أذربيجان عام657هـ/1259م ,فلم يسمح بإرساله إلى بلاط أخيه منكو حان كما كان مطلوبا ص منه بل أحتفظ به بعد أن تحقق من سعة إطلاعه ,وكان الغرض منه هو إن يتنبأ بالطالع ووصف ألكتبي علاقته بهولاكو بقوله"وأحتوى عقله حتى انه لا يركب ولا يسافر إلا وقت يأمره,(67),والشيء نفسه بالنسبة إلى آباقا خان فبعد إن تعرض لإصابة في يده وبعد تورمها فأنه رفض مداواتها عند إي طبيب إلا بحضور الطوسي فذكر رشيد الدين الذي دون هذه الحادثة "كان آباقا يصطاد في نواحي جغاتو, واتفق أن أصيبت يده المباركة من قرن ثور وحشي، ولما كان موضع الجرح قد تورم وصار مثل الكيس, فأن آباقا قد مسه منه الم عظيم ولكن لم يجرؤ الأطباء الكبار الذين كانوا حاضرين على فتحه، فتعهد نصير الدين الطوسي ، امام سائر الأمراء بالا يصيبه مكروه قط من شق الكيس وأمر الجراح فشقه وطهره ,فسكن الألم في الحال"(68).

وكان المغول يخشون السحر ويخافونه, وتضمنت الياسا, أحكاما ً شديدة رادعه توقع على كل من يتهم بالسحر والشعوذة, بقصد الإضرار بالغير وكانوا ينظرون إلى طائفة الكهنة من البوذيين على إنهم وحدهم الذين يستطيعون إبطال تأثير السحر ودفع ضرره (69) .

وبحكم ارتباط المؤسسة العسكرية والتي سوادها الأعظم من المغول, بالمؤسسة الإدارية المحلية العراقية, والتي هي على تماس مباشر بالقاعدة الشعبية سمح ذلك بانتعاش مثل هذه المعتقدات بين أوساط المجتمع العراقي, بعد اضمحلال الوازع الديني الرادع لمثل هذه الممارسات, مما فتح الباب على مصراعيه لنشوء فئة من المشعوذين هما استغلال من ترسخت لديهم مثل هذه الخرافات.

كما كان للمغول أعراف أخرى طبقت في الياسة جنكيزخان كذبح الحيوان, إذ بموجبها تم "منع البسملة حين الذبح, وعليهم إن يشقوا بطن الذبيحة, وان الحيوان تكتف قوائمه " ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى إن يموت ثم يؤكل لحمه, وان من ذبح حيوانا ً كذبيحة المسلمين ذبح "(70) واعتبروا ذبح الحيوان بقطع حلقه من الجرائم التي لا تغتفر فحرموا على المسلمين ذبح حيواناتهم وفقا ً للطريقة التي أجازها الشرع, واستعاضوا عن ذلك بطريقتهم الوحشية الخاصة التي تقوم على تعذيب الحيوان (71).

وذكر جويني إن القرآن أوكتاي بن جنكيزخان كان متساهلاً نوعاً ما مع المسلمين ويجد لهم الأعذار(72),أما القرآن قوبيلاي فانه كان متزمتاً في هذا الأمر خاصة بعد رفض بعض التجار المسلمين تناول الحم الذي قدم لهم على مائدته, فأمر انه كل من يذبح غنماً يذبح مثلها, وقد أدى هذا الأمر بكثير من المسلمين إلى مغادرة ولاية الخطا, واستمر القانون سبع سنوات, وبعدها عدل قوبيلاي عن رأيه لما سببه ذلك من آثار اقتصادية- سلبيه على مملكته (73). ويبدو إن مثل هذه القاعدة التي وضعها جنكيز خان لم يفرضها المغول إلا في المناطق التابعة للقرآن الأعظم والقريبة بعض الشيء من العاصمة المغولية قراقورم, والتي كان فيها المسلمون يمثلون الأقلية أما في أراضي الدولة الايلخانية وبضمنها العراق فلم توجد أي أشاره مماثله لكذا حالات, كون إن غالبية المجتمع كانوا من المسلمين فلا يمكن فرض مثل هذه الإرادة عليه . والشيء نفسه يمكن إن يقال على قاعدة منع الاستحمام في الماء الجاري والذي تصل عقوبته إلى الإعدام (74). وعلى العموم فأن قسماً لا يستهان به من عادات وطبائع المغول وجدت لها طريقاً تتخلل فيه إلى طبائع المجتمع العراقي, فيذكر عالم الاجتماع (سمنر- Smanr) إن العادات التي تقتبسها المجتمعات تتغلغل في النفوس ويمتزج معها بطريقة لاشعورية ثم تصبح بالتدريج شيئاً ثابتاً صلب العود (75).

المبحث الثاني
انعكاسات الغزو المغولي على المجتمع العراقي

لعل من أوائل الذين تنبهوا لتغير طبائع الشعوب واكتسابها لأعراف جديدة ,والذي سبق ابن خلدون في هذا المجال بأربعة قرون الأديب والفيلسوف العراقي أبو حيان التوحيدي(كان حياً عام400هـ) فمما ذكره وهو احد مواطني مدينة بغداد عهد الاحتلال الأجنبي الأول, ألا وهو الاحتلال البويهي في كتابه (الإمتاع والمؤانسة)"حدث من وقت الجاحظ إلى وقتنا هذا أمور وأمور وهنات وهنات أو غرائب وعجائب, لأن الناس يكتسبون على رأس كل مائة سنه عادة جديدة, وخليقه غير معهودة وبدأ هذه المئتين هو الوقت الذي فيه تنعقد الشريعة, وتظهر نوه وتفشوا أحكام"(76).

وذكر ايضاً أن التغيير في الأعراف يتم بالاختلاط مع الشعوب الأخرى فكانت بداية الاختلاط مع العجم على يد العباسيين الذين عاشروهم لسنين طويلة ومن ثم انتهى الأمر بقدوم البويهيين, واحتلال العراق "الا ترى إن الحال استحالت عجما كسروية, وقيصرية, فأين هذا من حديث النبوة الناطقة والإمامة الصادقة، دخلت النعرة في آنافهم فقد سموا آبين العجم أدباً وقدموه على ألسنه التي هي ثمرة النبوة، وكان من نتائجها هذه الفتن والمذاهب والتعصب، واصبح طالب الحق حيران، وصار الناس أحزاباً هذا أشعري وهذا خارجي وهذا راوندي ,وهذا قدري وهذا جبري وهذا رافضي ومن لا يحصي عددها إلا الله الذي لا يعجزه شيء, لا جرم شمت اليهود والنصارى والمجوس بالمسلمين, وعابوا وتكلموا ووجدوا آجراً وجصاً فبنوا, وسمعوا فوق ما تمنوا فروا"(77).

أما فيما يخص الغزو المغولي فلم يكن الأمر بذلك التدريج البطيء فقد كان التغيير سريعا فأبيد أو كاد جيل كامل من الناس ليحل محله جيل آخر جاء من أماكن أخرى, او بقي على قيد الحياة لينشأ ويتربى في ظل أسوء أحتلال شهدته البشرية على الإطلاق ولنا أن نتخيل مدى التغير والتطبع الذي أصاب المجتمع العراقي في هذه المدة .

وأشار المؤرخ العراقي القزاز في مقدمة كتابه الحياة السياسية في العراق عهد السيطرة المغولية بهذا الخصوص "إن العراق كان أشد الأقطار تأثراً بهؤلاء الغزاة "(78) من دون تعليق على عبارته التي افتتح به كتابه, وقد كان محقاً في ذلك إلى مدى بعيد فالعراق الشعب العربي الوحيد الذي خضع كل هذه المدة الطويلة للاحتلال المغولي, ولم يكن هذا الاحتلال متقطعاً كما هو الحال في بلاد الشام, كما انه كان أكثر الشعوب تحضراً من بين الأقوام التي أخضعها المغول ,لاحتضانه مؤسسة الخلافة العربية الإسلامية, إذا ما استثنينا الصين غير إن مساحة الأخيرة, التي تفوق مساحة العراق عشرات المرات حدت كثيراً من ذلك التأثير السلبي للغزو المغولي. ولقد ترتب عن الغزو المغولي للعراق عدة ظواهر اجتماعية انعكست على طبيعة المجتمع العراقي, تركت عليه بصمات لا تزال عالقة إلى يومنا هذا.

أولا : الانحسار السكاني والحضاري

تعرضت مدن العراق عامة ومدينة بغداد خاصة لوحشية المغول, وانتقامهم, وان ما أورده صاحب الحوادث عن مدينة بغداد خير دليل على ذلك" ووضع السيف في أهل بغداد يوم الاثنين خامس صفر ومازالوا في القتل ونهب وسلب وأسر وتعذيب الناس بأنواع العذاب واستخراج الأموال منهم بأليم العقاب مدة أربعين يوماً ,فقتلوا الرجال والصبيان والأطفال, فلم يبق من أهل بغداد ومن التجأ أليهم من أهل السواد إلا القليل ماعدا النصارى فأنهم عُين لهم شحان يحرسوا بيوتهم, والتجأ أليهم خلق كثير من المسلمين فسلموا عندهم، كذلك دار الوزير ابن العلقمي فأنه سلم بها خلق كثير وما عدا هذه الأماكن فانه لم يسلم به أحد إلا من كان في الآبار والقنوات واحرق معظم البلد وكانت القتلى في الدروب والأسواق كالتلال"(79),فلم ينجو من بطش المغول من سكان بغداد إلا النصارى ومن التجأ أليهم من المسلمين, ومن التجأ إلى دار ابن العلقمي, ومن اختبأ في الآبار والخرائب وهؤلاء لا يمثلون إلا نسبة ضئيلة من سكان بغداد.

ولسوء الحظ كانت مدن العراق وعلى رأسها بغداد من أكثر المدن التي نالها القتل من بين المدن التي غزاها المغول خلال حملة هولاكو والتي امتدت من شرق إيران إلى غرب آسيا الصغرى وبلاد الشام, فذكر جويني "وما جاءت الشهور الأخيرة من سنة ثمان وخمسين وستمئة حتى عادت البلاد إلى استقرارها وعمارتها ورونقها أو كادت وعدا خراسان والعراق, فقد أصيبت كل مدينة منها بحمى مطبقة, وسعير مقيم, فهم أغاروا على المدن وقتلوا أهلها وهاجت تلك المناطق سنين, ومن الآن إلى يوم الحشر إذا توالد الناس فلن يصل عددهم إلى عشر ما كانوا عليه قبل الهجوم المغولي"(80).

أما بالنسبة للخليفة العباسي فقد عمد هولاكو إلى قتل الخليفة دون إراقة دمه جرياً على ما جاء في دستورهم (الياسا) الذي يمنع إراقة الدماء الملكية النبيلة (81),وذكر صاحب كتاب الحوادث انه "جعل في غراره ورفس حتى مات, ودفن وعفي اثر قبره" (82) كما ذكرت بعض المصادر انه قتل بعد إن لف بسجاده ومن ثم وطأته حوافر خيولهم لتجنب سفك دمه لاعتقادهم إن ذلك سيجلب لهم الفال السيئ (83).

وفضلاً عن الانخفاض العددي في السكان فقد تعرضت لانخفاض اشد وطأة ألا وهو الانخفاض الحضاري, فذكر المستشرق البريطاني براون إن " الانتكاسة التي منيت بها الحضارة الإسلامية على اثر الغزو المغولي لا يمكن عودتها إلى سابق عهدها, يتعدى التصور والوصف, ليس بسبب آلاف الكتب والتي لا تقدر بثمن قد أبيدت ولكن بسبب عدد الرجال المتعلمين المثقفين الذين أبيدوا عن بكرة أبيهم عدا أولئك الذين استطاعوا الفرار بجلودهم, فقد كان من المستبعد إن مثل هذه الحضارة العظيمة تنتهي بهذه السرعة فاحترقت بالنار وأخمدت بالدم"(84).

ويضاف إلى هؤلاء فقد تم تهجير من بقي على قيد الحياة من أصحاب الحرف إلى مدن إيران الكبرى حيث مقر المغول الايلخانيين ,مما كان له الأثر الأكبر في اختفاء واضمحلال عدد من الحرف اليدوية والصناعات, كل ذلك أدى إلى ضياع الكثير من التراث العربي الإسلامي غير إن بعض المدارس ظلت تؤدي عملها لاسيما المدرسة المستنصرية.

وهكذا وجد إفراد المجتمع العراقي أنفسهم ولأول مرة قد فقدوا مركزهم الذي ميزهم عن غيرهم من أصقاع البلاد الإسلامية من وجود مؤسسة الخلافة الإسلامية, التي ظلت بين أكنافه أكثر من خمسة قرون, فضلا عن عزلته عن محيطه العربي إذ أصبح نهر الفرات حداً فاصلاً بينه وما بين الأقطار العربية والتي تولى مماليك مصر الدفاع عنها ,كما تحول العراق إلى ولاية ايلخانية تابعة للعاصمة تبريز مقر حكم الايلخانيين, بينما غدت بغداد ثانوية غادرها العلماء والفقهاء, ورجال الدين والعلم ,وتحول كل ما كان للعراق من دور حضاري محوري ريادي ومؤثر على أرجاء المنطقة العربية إلى مصر التي أوقفت زحف المغول اليها ومن ثم أفريقيا, وفتحت أحضانها لعلماء العراق والمشرق الإسلامي ,وأبناء أسرة الخلافة العباسية لتحتل القاهرة مكان بغداد والى يومنا الحاضر.

ثانيا : السلوك الجمعي*

شهد المجتمع العراقي عهد السيطرة الايلخانية حالة نادر ما كانت تحدث قبل الاجتياح المغولي لمدن العراق, والمتمثل بالعنف الجماعي المفرط في القسوة الذي كان يطفوا على السطح على شكل ردود أفعال قوية يصعب التحكم بها, والناجم عن الكبت المتراكم لسنوات ومشاهد القتل والسلب والتشريد التي كانت تمارس ضده, وغارات المغول المتتالية على مدن العراق بهدف السلب والنهب.

ويطلق علماء الاجتماع على هذا النوع من السلوك (السلوك الجمعي)ذلك الحقل من علم النفس الاجتماعي, ويعني بدراسة الظواهر التي هي ما بين السلوك الجماعي –Group behavior المنظم على أساس القواعد والنظم الاجتماعية من جانب, وما بين السلوك الفردي من جانب آخر, فهو يعني التشكيل التلقائي لجمع من الناس على هيئة (حشد-Crowd) يخضعون لقيم طارئة, وهو نسبياً غير منظم وغير مخطط لتشكيله, ولا يمكن التنبؤ بنتائجه(85).

ولقد ترك صاحب كتاب (الحوادث) والتي مثلت كتاباته الذاكرة العراقية عن المجتمع العراقي عهد الايلخانيين, صور فيها حالات الهياج والتنفيس هذه وكان قسم منها يجري تلقائياً دون أي تأثير خارجي وبإرادة شعبيه تقوم بها الطبقة الفقيرة الغير مثقفه السريعة التأثر والانفعال.

ففي مستهل حكم آباقا خان سنة663هـ/1264م تفجر مثل هذا النوع من السلوك الجمعي, ومن ابرز الأمثلة على هذا النوع من السلوك الجمعي في عراق ما بعد السيطرة المغولية ما حدث سنة663هـ/1264م,إذ تفجر هذا السلوك عندما حاول جاثليق بغداد (مرمليخا) إغراق رجل نصراني قد أسلم في دجله, فبلغ العوام ذلك ,فاجتمعوا ونهبوا سوق العطارين ,وغيرها من محال بغداد التي يمتلكها النصارى, وحاصروا الجاثليق واحرقوا باب داره, ولم يهدأ الناس إلا بعد تدخل شحنة بغداد الذي قتل عدد منهم, وسجن عدداً آخر(86) ,وفي عام696هـ/ 1297م قتل بجامع الخليفة ببغداد في يوم الجمعة رجل علوي كان متغير العقل نسب إليه العوام انه قال ما لا يجوز فاجتمعوا عليه وضربوه ورفسوه حتى مات,ثم أخرجوه من باب الجامع وأحرقوه فأنكر الديوان ذلك ولم يعُرف قاتله"(87).

كما كانت بعض حالات القتل الجماعي للضحية تتم بمباركة السلطة الحاكمة وتشجيعها كنوع من الانتقام والإذلال ,والإهانة للشخص المُعاقب, ففي العام677هـ/1268م سلم الجويني أحد المتواطئين مع شحنة بغداد الايلخاني ضد الجويني,إلى عامة الشعب, فبعد تعذيبه, وقطع لسانه, قطع رأسه, ووضع مكانه رأس معز بلحية, وطيف به, واحرق العوام جثته, ورفع رأسه على خشبه وطيف بها "(88),ونفس الشيء عندما تم تسليم أتباع مجد الملك الذي اتهم الجويني بسرقة أموال الدولة وهم من النصارى إلى العامة "فطيف بهم في بغداد عراة والعوام يصفعونهم ويضربونهم بالآجر,ثم قتلوا بقية اليوم وجر العوام جثثهم ,وأحرقوهم بباب قلاية النصارى(89).

ومن الأمور التي اشتهرت حقبة الايلخانيين إن تصنع حجلة للشخص المشهر به من الخشب يُسمر عليها,(اي يثبت على خشبه على شكل الصليب وتدق المسامير في يديه ,كما هو حال المصلوب)ويسلم لعوام بغداد صباحاً ليذوق أنواع العذاب الجمعي حتي يقتل قبل حلول الليل , ومن هذه الحالات التي أوردها صاحب الحوادث والذي يبدو من وصفه انه كان شاهد عيان "وفي عام677هـ/1287م، تم معاقبة أحد الوشاة ضد الصاحب الجويني, فصنعت له حجله سمر عليها ووضع له مسخرة تصفعه بالنعل ويروحه ويبول عليه الناس, يجرون الحجلة في الأسواق والدروب في جانبي بغداد حتى آخر النهار حيث قطع رأسه ووضع على خشبة وطيف به"(90). وقتل بنفس الطريقة ونفس السبب شخص يدعى ابن بقا الشربدار "عمل له حجله وسُمر عليها, وجعل على رأسه مسخرة كان ببغداد يعرف بالموصلي يصفعه بنعل ويروحه به, ثم يبول عليه ,والناس يمدون الحجلة بالحبال في الأسواق والدروب في جانبي بغداد, ومازالوا يعذبونه بمد الحجلة واضطرابها إلى آخر النهار, ثم قطع رأسه ووضع مكانه رأس معز بلحية , وطيف به, وأحرق العوام جثته ,ورفع رأسه على خشبه وطيف به"(91).

ونفس الشيء عندما سلم أداري اتهم بالتقصير, والاختلاس, وهو (مهذب الدولة)"فضرب بالسكاكين والسيوف, وكان بالاتفاق في الديوان نجار وقد جاء متفرجاً ومعه فأس فضربه عدة ضربات ثم قطع أرباً أرباً, وتناهبه العوام, فغنم نفاط بمصرانه, وطافوا به في شوارع بغداد ودروبها, ثم أحرق بباب جامع الخليفة ما عدا رأسه فانه سلخ وحشي تبناً,وطيف به من جانبي بغداد وحمل إلى واسط فعلق على جسرها" (92) ويبدو إن مثل هذا الأمر أصبح من الأمور المعتادة عند سكان بغداد باعتباره مقر صاحب الديوان وفيها تنفذ الأحكام, فنجد إن احد المشهر

بهم من اللصوص قامت السلطات بوضعه في ظل ليطول عذابه ولكنه وبسبب قوته الجسدية وتعاطف بعض الناس معه فكانوا يحضرون الطعام إليه ,وبالمقابل يلقي النكات لهم غير آبه بمصيره ,واستمر الأمر عدة أيام مما أضطر الدولة إلى قتله في النهاية (93).

وذكر ابن العبري طريقة قتل جندي كان يبتز أموال الناس ,ويعتدي على اعراضهم مستغلاً وظيفته من دون اي تخوف من أقطاب الدولة "فنصبت له مشنقة على عجله وسمر يديه ورجليه فطافوا به هكذا في شوارع بغداد وثقبوا لسانه بمسلتين، ثم مضوا به الى نهر دجله وحزوا هامته وعلقوها فوق الجسر وأحرقوا جثته بالنار, وقد اتعظ الكثير من الأشرار بهلاكه"(94).

مما سبق يتبين إن الإدارة الايلخانية في العراق كانت تشرك العامة في التشهير والقتل والتمثيل بالجثث, فكانت أبشع عقوبة ممكن إن يتعرض لها شخص هو إن يسلم إلى عامة الناس, ومثل هذا النوع من السلوك الجمعي تكرر مراراً وتكراراً طيلة الحقب التاريخية التي مرت بالعراق يمارسها العوام كلما سنحت الفرصة لذلك, وهذه الطباع التي اكتسبتها الطبقة العامة الفقيرة الغير مثقفه اكتسبت من التعايش مع قسوة المغول مما ولد كبتاً افرز قسوة مماثله لقسوة المغول.

علماً إن حالات السلوك الجمعي التي شهدها العراق لم تكن بالمطلق سلبيه بل كانت في بعض الأحيان إيجابية ومنها عند تعرض مدينة بغداد إلى الفيضان فذكر صاحب الحوادث "عندما فاضت مياه دجله وحدثت في مجراه فتحة عظيمه قام الجويني بحمل باقة من الشوك ووضعها بيده في ذلك المكان فلم يبقى احد من أهل بغداد إلا وفعل مثله وتكاثر الناس وتساعدوا وسدوها" (95).

ثالثاً :العزل والاستبعاد الاجتماعي الديني

ظهرت هذه الحالة الاجتماعية بعد أحداث الغزو المغولي للعراق, اثر إلغائهم الأساس الديني للدولة, وهو الإسلام ,وجعل الأديان ومن ضمنها الوثنية طوائف متساوية, من وضع اعتبار للأغلبية ألمطلقة للسكان, فنصت قوانين الياسا إن كل الديانات يجب إن تحترم من دون تفضيل, ويجب معاملة رجال الدين بكل احترام(96),فقد عومل النصارى معاملة خاصة بعد دخول المغول أليها لمساعدة النصارى لهم في حملة هولاكو ,وما أثمر من تحالف عسكري بين هولاكو وملك أرمينية الصغرى وأمير إنطاكية أسفر عن احتلال بلاد الشام (97) ,فضلاً عن اعتناق زوجة هولاكو للنصرانية والتي امتلكت تأثيراً كبيراً عليه فقد اتفق كل من غروسيه وشبولر في تأثير زوجة هولاكو دوقوز خاتون بحيث كان غالباً ما يشترك في الأعياد المسيحية بنفسه. ويحضر القداس, وقد أجاز بناء كنيسة صغيرة في البلاط الملكي, ووقف الأوقاف في مصلحة الكنائس, وفضل المسيحيين على المسلمين في المعاملة, وقد تمتعت الطوائف المسيحية بعطف الخان, وزاد نفوذهم وتعاظم وأصبح لهم الحق في السير في مواكبهم علناً, وان يرمموا كنائسهم وأديرتهم ويوسعونه (98), وأضاف غروسيه بأنه كانت تبنى كنيسة كل يوم لكسب رضى زوجته الأميرة الكرايتية وابنة أخ آخر ملوكهم (الونغ خان),حتى إن القرآن منكوخان نصحه بأخذ المشورة منها (99) ,لذا كان النصارى هم الوحيدون الذين نجوا من القتل عند دخول المغول إليها, كما نظر النصارى لهولاكو وزوجته نظرة المخلصين, والمنقذين, مما ترك انطباعاً سيئاً لدى أهالي بغداد, الذين لم يدخروا فرصة إلا واستغلوها للانتقام من النصارى, إما اليهود فقد ارتفعت مكانتهم كثيراً في المجتمع العراقي, عندما تولى احدهم الذي لقب بسعد الدولة عام688هـ/1289م صاحب ديوان المملكة الايلخانية, فرفع اليهود إلى أعلى المناصب وظل في منصبه سنتين (100) ألا أنه تعسف في معاملة المسلمين واستيفاء الأموال منهم ,فعندما مات من ولاه آرغون بن آباقا (683-690هـ/1284-1291م)خلع من منصبه, وتم تصفيته (101) تعرض اثر ذلك اليهود إلى الاستبعاد الاجتماعي, تعرضت أموالهم وممتلكاتهم للنهب والسرقة.

وكان النصارى أول من طالتهم عقوبة المجتمع العراقي, كما سبق ذكره في هياج المسلمين على جاثليق بغداد الذي أراد إغراق نصراني اسلم, وكيف أحرقوا داره وعندما ذهب إلى الخان آباقا مشتكياً لم يجد آذانا صاغية, فانتقل على إثرها إلى مدينة أربيل, وابتنى هناك كنيسة (102) .

وعندما رغب نصارى اربيل سنة 672هـ/1273م الاحتفال بعيد الشعانين ,وقد تناهى إليهم إن المسلمين يتهيؤون لإلحاق الأذى بهم فاستدعوا زمرة من التتر النصارى المجاورين ليحضروا ويعاونوهم للدفاع عن أنفسهم فحضر هؤلاء ووضعوا الصلبان على رؤوس الرماح وخرج النصارى ومعهم مطران النصارى يتقدمهم التتر راكبين ولما اقتربوا من قلعة المدينة هاجمهم المسلمون بالحجارة, فانصرفوا وتشتتوا وظلوا أياماً لا يجسرون على الخروج" (103).

ويورد ابن العبري الذي مثل وجهة النظر النصرانية آنذاك بقوله "ثار الاضطهاد والغضب على النصارى المظلومين وجعلوا ينكلون دون شفقه بهم ولاسيما صاحب اربيل, فقد وثقوا رجليه ورفعوه نحو ذراع عن الأرض ونشموا يصفعونه حتى خارت قواه ثم انزلوه حتى أمسى على آخر رمق ,ثم أحضروا ناراً في طست وضعوه على صدره، حتى استنفذوا منه خمسين ألف دينار", كما "ضج المواصلة على صبي نصراني وادعوا انه فاجر يرتكب الفحشاء مع النساء المسلمات فبطشوا به وجروه في شوارع المدينة وكوموا عليه الحطب وهم يسخرون بالمسيحيين على انه ما احتمله المواصله، من العذاب والاضطهاد لا يتيسر للسان أن يعبر عنه ولا القلم أن يصفه" (104).

وبالنسبة لليهود فقد أزداد تعرض سكان العراق لهم ,خاصة وأنهم لم يحضوا بأي حماية من المغول عدا عهد آرغون,," ففي عام690هـ/1291م وبعد إن قبض على سعد الدولة, شاع بين الناس إن الأمراء فسحوا في نهب اليهود فنهبت دورهم ودكاكينهم وقصدوا محلتهم فناهضهم اليهود ونشبت بين الفريقين معركة وقع فيها قتلى من الجانبين وذل اليهود ذلاً شديداً حتى إن قسم كبير منهم نهبت اغلب أموالهم فعادوا يمارسون مهن وضيعة كالدباغة أو حتى الاستجداء"(105).

وفي حادثة أخرى التي تبدو أنها لم تكن وحيدة قتل شاب يهودي يعرف بابن فلانه, وقطعت أعضاءه, وشد العوام في أحليلة حبلاً وطافوا به سحباً في دروب بغداد ,ثم أحرق في باب جامع الخليفة أيضاً "(106) وفي العام 683هـ/1284م شاع في بغداد إن عز الدين كمونه اليهودي صنف كتاباً اسمه(الأبحاث في الملل الثلاث) تعرض فيه إلى النبوءات فهاج علية العوام وحاولوا قتله فأنقذه الحاكم بإرساله إلى الحلة حيث كان ولده كاتباً "(107), وفي عام687هـ/1288م وصل بغداد جماعه من يهود تفليس عينوا ولاة على تركات المسلمين فأساءوا السيرة وثار عليهم الناس, واضطروهم على الفرار والعودة حيث قتلهم الأكراد في الجبال (108).

وفي عهد (آرغون بن آباقا) عام689هـ/1290م قبض على أحد الإداريين المدعو(فخر الدولة) فنهب عوام بغداد داره ,ودور اليهود كافة واخذوا أموالهم ودام ذلك ثلاثة أيام (109).

ويمكننا إن نطلق على هذه الحادثة وما سبقها من الحوادث, بأنها أول سرقة جماعية لأموال اليهود في العراق, وهو ما أطلق عليه في أربعينيات القرن المنصرم ب(الفرهود)وهكذا تتطبع عوام بغداد بصفات الغازي المغولي, إذ كان من عادة المغول في كل غزواتهم وبشكل جماعي, هذه العادة تظهر حتى في كتابات مؤرخيهم فالجويني غالباً ما يردد لفظة "السلب والنهب كمرادف لغزواتهم"(110).

وهذه الصفة اقتبسها عوام بغداد والعراق من مقاتلي المغول الذين كانوا يسرقون المدن المفتوحة بأمر من الخان بعدها غنائم حرب وقبالة أعين أصحابها من أهل البلاد المغلوبين على أمرهم ,وبعد إن كانت حالات فردية في المجتمع العراقي, نجدها أصبحت حالة عامه بين فقراء المدينة يمارسونها ويترقبونها من دون إن يردعهم أي رادع ديني.

ونجد الدولة الايلخانية بمرور الزمن أنها تساير روح الشعب وتتخذ إجراءات مناهضة ضد اليهود ,فقام السلطان أبو سعيد بإلزام النصارى واليهود بالغيار ثم نقضت كنائسهم وديراتهم وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير منهم سديد الدولة, وكان ركناً لليهود عمر في زمن يهوديته مدفناً له خسر عليه مالاً طائلاً فخرب مع الكنائس وجعل بعض الكنائس معبداً للمسلمين, وشرع في عمارة جامع بدرب دينار وكانت بيعة كبيره جداً(111) كما وتعرض الشيعة في العراق في عهده إلى الاضطهاد لاسيما رجال الدين منهم (112).

وقد تأثر خانات المغول بعادات العراقيين من زيارة الأضرحة الدينية فنجد قيام آباقا خان بزيارة مشهد ألائمه رغم ديانته البوذية قبيل مواجهته لمغول الجغتاي الذين اجتاحوا أراضي مملكته الشرقية "اتجه نحو مشاهد الأولياء وقبورهم, وكان يطلب العون والمدد من الله في تضرع وخشوع" (113) وكذلك زيارة محمود غازان لمشاهد ألائمة (114).

فتشير الروايات إلى قيام المغول بحالات سلب ونهب لمدن العراق بشكل دوري, منها ما حدث عام681هـ/1281م إذ قام جنود مهزومين على يد المماليك في معركة حمص "فنهبوا خلقاً كثيراً من واسط, وعادوا بالأسرى, ونزل الكثير منهم في دور بغداد وأخرجوا أهلها منها "(115) ومن ذلك أيضا ص ما حدث عهد كيخاتو خان (690-704 هـ/1295-1305م) عندما أمر الأمير بايدو بالذهاب إلى واسط لتأديب بعض الأعراب المفسدين على حد قول صاحب كتاب الحوادث "ولكن الإعراب لجئوا إلى البطائح (الاهوار) فلم يقدروا عليهم فعاد مع عسكره وأخذ ينهب الأموال والجواميس, والبقر, والغنم, واسر الناس وسبى النساء, وصادف سفن تجار الواصلين من البحر(شط العرب)فنهب بعض ما فيها من القماش ثم انه أرسل جماعة من عسكره إلى (عين التمر) و(الكنيسات) فنهبت الناس واسرت، فلما وصل الخبر بالسلطان غضب عليه فحبسه ثلاثة أيام ,ثم أطلقه, كما أطلق طائفة من أسراه وأرسلهم إلى أهليهم" (116).

رابعا : الفوضى المعيارية

لعل من أقرب النظريات الاجتماعية مع ما عاناه المجتمع العراقي عهد الاحتلال الايلخاني, هي نظرية الفوضى المعيارية التي تعد أحد عوامل انعدام الأمن الاجتماعي, كما إن اللامعيارية (الانومي) هي أحد منابع الانحراف (117).

ويعد عالم الاجتماع الفرنسي(اميل دوركايم-Emile Durkheim) المؤسس الحقيقي لهذه النظرية ويشير إن (الانوميا- فقدان المعايير الاجتماعية) يمكن إن تؤثر في المجتمع بأكمله عندما يمر بوضعين ,الأول عندما يعيش حالة تغير اجتماعي سريع, والثاني عندما يواجه أزمات وحروباً فتتقوض أسس النظام الأخلاقي فيه (118).

والواقع إن ما حدث في العراق يكاد ينطبق مع قول بوتول " إن آثار كل حرب هي بلا شك في عدد نتائجها" (119)" هي صورة من صور الانتقال العجل تسهم في انتقال الثروات(إفقار فئات وصعود فئات) وتحدث أثراً كبيراً في السكان ومنها ارتفاع الوفيات وانخفاضاً مؤقتاً في الولادات كما تؤدي إلى تغيرات ديموغرافية واسعة مثل تأخر سن الزواج وهجرة الشباب, وارتفاع نسب الفئات المهشمة, وهي تؤدي إلى هدم بعض القواعد الأخلاقية وترفع المُحرمات (التابو) بحيث تباح أعمال كان من المألوف تحريمها فتصبح مستحبة أو تفرض فرضاً "(120), فقد أحدث المغول تغيراً سريعاً في طبائع المجتمع العراقي, حيث لم يعد لقوى الضبط الاجتماعي ذات التأثير السابق, فكلما كان التغيير سريعاً كلما أصبح من الصعب أقامة أنماط جديدة, فالتغيير السريع يؤدي إلى قيام حالة من التصادم بين القيم والمثل وما بين الأصيلة, والقيم الطارئة, وهذا التعارض بين القيم يؤدي إلى تقليل تأثير القيم الاجتماعية القديمة والحديثة على السواء على سلوك الإفراد(121).

كما إن دور رجال الدين بعد مقتل وهجرة الكثيرين منهم ,أصبح ضعيفاً إن لم نقل معدوماً مقارنة بالحقب السابقة للغزو, مما فسح المجال لدخول الخرافات إلى شعائر مسلمي العراق," بعض العراقيين بحفر قبور جديدة أدعوا أنها تعود لأولاد ألائمة, وشيدوها وأصبحت مزارات ,وتواتر بعد ذلك أخبار العوام برؤية المنامات وكثرة الظواهر وتحدثوا بقيام الزمني، ونقل قوم عن قوم أشياء لا اصل لها غير أهوية العوام وبطل الناس من معايشهم واشتغالهم بسبب ذلك, فتقدم صاحب الديوان بنقل كل من يوجد له قبر إلى مشهد موسى بن جعفر علية السلام، ففعلوا ذلك وسكن العوام, ثم حضر بعض من يدعي انه علوي, وزعم انه رأى في منامه ما يدل على ظهور قبر بعض الأئمة عليهم السلام"(122), حتى وصل الأمر بأحد الشعراء الذي فضل شعره على القرآن الكريم فما كان من والي العراق إلا أن قتله (123) .

ومن البديهي إن شرب الخمر قد أزداد وتفشى بين طبقات المجتمع العراقي بسبب غياب الرادع الديني وإقامة المغول للحانات في كافة أرجاء البلاد كونهم من الشعوب المدمنة لشرب الخمور بعدها من الوسائل الترفيه المعتمدة, وكان في العراق عدد كبير من جنود المغول بسبب وجود حامية مغولية ثابتة في بغداد ومدن العراق الأخرى, فضلاً عن استقبالها للخان فصل الشتاء سنوياً تقريباً, كما إن العرق مثل الحدود الجنوبية الغربية للدولة الايلخانية والأكثر خطورة لتماسها مع أراضي دولة المملوكية التي كانت في الطرف الغربي من نهر الفرات لذلك كانت تشحن بالجنود الايلخانيين, كلما أقتضى الأمر ,لتعرضها المستمر لتهديد المماليك, وكل ذلك يتطلب حانات كثيرة دائمية, وموسمية لتغطية احتياجات ذلك الجيش الضخم من المقاتلة المغول من الخمور.

وفي عهد محمود غازان الذي أول من أعلن الإسلام دين رسمي للدولة بدأ بتقليص دور الدعارة وما يرافقها من حانات ,بشكل تدريجي في كافة أنحاء الدولة الايلخانية ومنها العراق (124) .

ولم يتم إلغاء الحانات في بغداد إلا في عهد السلطان الايلخاني أبو سعيد(716-736هـ/1317-1335م) ففي عام 702هـ/1302م أمر السلطان بإراقة الخمور وأبطل الحانات ,وفي عام721هـ/1321م,خرب البازار, وزوج الخواطي وعاقب في ذلك أشد معاقبه ومن الأمور التي خففت على كاهل الطبقة الفقيرة في العراق ما قام به الايلخان أبو سعيد عندما أطلق ببغداد مُكس الغزل ,وضمان الخمر والفاحشة, وأعطيت المواريث لذوي الأرحام دون بيت المال وخفف من المكوس (125) ,كما كانت الضرائب على الخمر والفاحشة تعطى بالضمان فألغاها أبو سعيد عام734هـ/1333م (126).

ومن ملامح الامعيارية الاخلاقية التي انتابت المجتمع العراقي هو ما حدث عام 679هـ/1280م عندما اتفقت امرأة مع أحد الرجال على قتل زوجها, فقبض عليها وغرقت وسمر قاتل زوجها, كما وجد رجل وأمراه في شهر رمضان في حمام على فاحشه, فأمر علاء الدين صاحب الديوان بحصبهما ,فحصبا ظاهر سور بغداد, ولم ير في تاريخ انه حصب ببغداد أحد"(127),وأضاف ابن كثير إلى ذلك النص" وذلك غريب جداً"(128).

ولعل لجوء الجويني إلى تطبيق مثل هذه العقوبة التي لم يُعمل بها منذ عهد الخلافة الراشدة, مرده تفشي مثل هذه الحالات وحتى يكون رادعا لمن تحدثه نفسه بذلك للحيلولة دون تفسخ ما بقي من القيم الاجتماعية, كما أراد إن يذكر الجميع إن الشريعة الإسلامية مازالت هي التي تحكم البلد (129).

ولم تقتصر الفاحشة على عامة الناس بل امتدت إلى الطبقة الارستقراطية, ففي عام 666هـ1267م "قتلت امرأة أسمها(عروس خاتون) وكانت زوجة لأحد المقربين من شحنة بغداد (توكال بخشي)وأسمه حسين أغا لارتكابها الزنا فأخرج الغلام الى ظاهر السور وضرب له وتد في الأرض, وأقعد عليه فمات ، ثم قتلت المرأة على يد زوجها(130) .

ومثلما انعكست هذه اللامعيارية على سكان مدن العراق فقد انعكست ايضاً على بدو العراق من القبائل العربية وفي مقدمتها عرب خفاجة القاطنين في الصحراء العراقية, والتي كان يصعب السيطرة عليها من قبل الدولة الايلخانية ففي بداية الاحتلال نجدها تساند الخليفة العباسي الأول المنصب في مصر المستنصر الثاني عام661هـ/1262م,وتدخل معه في معركة انتحارية ضد الجيش المغولي إذ لم يكن معه إلا بضعة مئات من جنود المماليك, فجرت معركة غير متكافئة عند مدينة هيت انتهت بمقتل الخليفة ومن كان يرافقه (131),ألا إننا نجدهم وبعد مدة وجيزة يفضلون الوقوف إلى جانب الدولة الايلخانية, لحراسة حدود العراق الغربية, لعجز الايلخانيين على إقامة حاميات ثابتة في تلك المناطق النائية والحارة أغلب أيام السنة, فتولت قبيلة خفاجة مسؤولية الطليعة في جيش الخان المغولي آباقا خان, كما قاموا عام675هـ/1276م بالاصطدام بالجيش المملوكي على أطراف نهر الفرات(132).

ونفس الشيء بالنسبة لقبائل ربيعة في العراق والتي تزعمها بيت عيسى الذي اشترك في قتال هولاكو مع السلطان المملوكي المظفر قطز, وعندما توفي عام684هـ/1285م تولى الإمارة ابنه مهنا بن عيسى الذي عاصر السلطان المملوكي محمد بن قلاوون وكان يميل مرة إلى المماليك ,وأخرى إلى المغول بحسب ما تمليه مصالحة الشخصية المادية البحتة (133). بينما لجأ ت قبائل أخرى إلى عمليات الإغارة على المناطق الريفية في واسط وغيرها من مدن العراق الجنوبية بهدف سرقة الماشية هناك (134).

خامساً : التفكك الاجتماعي

أفرز الاحتلال المغولي فئات اجتماعية غير متناسقة داخل النسيج المجتمعي العراقي ,الفئة الأولى هي الفئة المتأقلمة مع الاحتلال وتعايشت مع ذلك الواقع, وشملت الطبقة الإدارية الخواجكيه ,وهؤلاء كانت أحوالهم ألاقتصادية جيدة جداً بسبب رواتبهم العالية فكانت تتراوح ما بين 300 الف دينار رائج وألف دينار(135),وذكر ابن فضل الله العمري وبهذه المملكة ما لا يحصى من الإدارات والمعيشات والمرسومات ,حتى إن بعض الرواتب تبلغ عشرين الف دينار, أما الادرارات من القرى, فأنها تبقى لصاحبها كالملك يتصرف فيه كيف يشاء, والمعاش لمدة الحياة لا غير(136), ويمكن إن نضيف إلى هذه الفئة طبقة المدرسين والنظار والذين عينوا على مدارس العراق والتي شهدت توسعاً عهد الجويني(137), والتجار والذين كانوا يعانون من ضرائب الايلخانيين

الثقيلة, فكانوا يلزمون تجار بغداد بالقرض والمساعدة, وضيقوا على ذلك (138), وما عدا العاملين على الوظائف الإدارية ,والتعليمية التابعة للدولة ,والأطباء, والتجار, تأتي الفئة الفقيرة الأكبر حجماً,أو ما يردون في المصادر(العوام) وهم أصحاب المهن والصناعات, والباعة ,والسماكين ,والحمالين, والطرارين, من جهة والفلاحين من جهة أخرى, إذ عانوا كثيراً فكانت تطلب منهم أموال الرسوم على مزروعاتهم قبل الوقت المحدد, كما إن التسعيرة التي يحددوها لهم كانت ثقيلة, "فتم تخفيف هذه المظالم عهد محمود غازان, إذ تعسف الجباة في استحصال الأموال من الفلاحين من خلال تقديم "المحاصيل الزراعية أو النقود العينية, فان أكثرها كان يحصل بالحيازة, والمتصرفين في الاموال، وكانوا يطالبون بالأموال قبل حلول الميعاد المحدد لتحصيلها ,وعند وضع الشعيرة (وقت الحصاد) يشقون ويثقلون على الرعايا والمزارعين إلى أقصى حد بحيث أن أنواع تلك المظالم كانت تفوق الحصر, وقد حدث هذا في بغداد وشيراز تلك المدينتين العظيمتين"(139).

وهذه الفئة الثانية تمثل غالبية المجتمع العراقي والأكثر فقراً وتضرراً بالغزو المغولي والأكثر تأثراً بعادات المغول من الفئة الأولى التي كان يحكمها العمل الإداري وسلوكيات رجال الدولة المتوارث عن الإدارة العباسية السابقة فيما عدا تصرفات ولاة العراق الذين مارسوا نفس العقوبات التي مارسها المغول بحق أعدائهم.

وهم بحسب المؤرخ العراقي جعفر حسين خصباك للمجتمع العراقي آنذاك "إن حياة غالبية الناس كانت نزاعاً بين متطلبات الحياة اليومية التي لا تخضع لرقابة الدين أو الضمير من جهة, والتفكير بالعالم الثاني ويوم الحساب وما يحمله الإنسان من الآثام والذنوب من جهة أخرى, فأخبار العصر تحمل الكثير من حروب تكاد تكون مستمرة" (140).

ونتيجة لهذه الظروف الغير مستقرة التي عاشها المجتمع العراقي فقد كانت أنماط الاستجابة لمثل هذا الظرف الذي يصنف تحت عنوان(ألازمة وفقدان الأمن) هي في الغالب منحرفة, انقسمت بموجبه سلوكيات أفراد العوام إلى نوعين من السلوك, الأول هو السلوك الطقسي لينشأ ما يمكن إن نسميه فئة الطقسيين, ولعل أكثر الفئات ميلاً إلى هذا النوع من التكييف الطقسي الشرائح الدنيا من أفراد المجتمع, وهؤلاء الطقسيون كان تدينهم سطحيا ,وممتزجاً بالخرافات, ولغرض المنفعة المادية في أكثر الأحيان ,ويذكر الفيلسوف القرطبي ابن رشد (ت595هـ/1198م) بهذا الصدد" التجارة بالأديان تجارة رائجة في المجتمعات التي ينتشر فيها الجهل"(141) فذكر صاحب الحوادث انه في عام671هـ/1272م رأى احد سكان بغداد إن ولداً من أولاد الحسين(عليه السلام)مدفوناً في موضع معين من بغداد, وشاع الخبر بين الناس فنبش الموضع ووجد فيه قبر وتبرع احد الموسرين بمال فعمر الموضع وحضر كثير من الناس لزيارته ونذرت النذور"(142).

وتواترت أخبار العوام برؤية المنامات وقيام المرضى وفتح أعين العميان وما شابه"(143),وادعى البعض رؤية الإمام المهدي إلى آخره من الأمور التي تشغل الناس عن واقعهم الذي أصبح من العسير تغييره (144) وهي طريقة للهروب من الواقع من خلال الإمعان في التمسك بالطقوس والشعائر فيصبحون في المجتمع وكأنهم ليسوا في المجتمع(145).

أما القسم الثاني من طبقة العوام نجد إن نمط الاستجابة لديها قد تم بصيغة التمرد على واقع المجتمع ورفضه, وهذه الفئة يمكن إن نطلق عليها الفئة(المتمردة)وهؤلاء يتحركون للقضاء على النظام الاجتماعي القائم وهو عند عالم الاجتماع (مورتن) يندرج في إطار السلوك المنشق الذي يفصح عن موقفه ويجاهر به ,حتى إنهم يباهون بأنهم ليسوا ضمن القطيع المتمثل بالأغلبية الصامتة في المجتمع وقد ينالوا أعترافاً اجتماعياً أو تعاطفاً من بعض أعضاء المجتمع (146).

وقد يتمكنون أحياناً من إجتذاب أعداد من الفئة الأولى من العوام (الطقسيين) والصفة المتلازمة لهم هو استخدام العنف والقتل لتحقيق الأهداف التي يدعون اليها.

فمن ملامح هذه المدة عودة العياريين والشطار* من جديد ,وما رافقها من عمليات سطو ولصوصية ولم يستطع والي العراق الجويني من القضاء عليها إلا في عام677هـ/1278م وذلك باللجوء إلى الحيلة بأن عينت زعمائها في الشرطة, ومن ثم لجأت إلى قتلهم, مما أثار جماعتهم من العيارين فقتلوا نائب الشرطة (مدير الشرطة) فأمر صاحب الديوان بنبش جثث زعمائهم وحرقها (147).

وظهر في سواد الحلة رجل يعرف بأبي صالح أدعى انه نائب صاحب الزمان أرسله ليعلم الناس انه قرب ظهوره, وأستغوى الناس بذلك فكثر جمعه وانضم إليه خلق كثير من الجهال, فقصد بلاد واسط واخذ من أموال الناس شيئاً كثيراً غير إن السلطة تمكنت من قتله وحمل رأسه إلى بغداد وعلق بها, وظهر شخص آخر يحمل نفس الأفكار ليحقق المكاسب التي حققها أبو صالح ,ألا انه ما إن علم بمصيره حتى هرب وتفرق جمعه (148) ولعل هذه الحركات المتواصلة ضد السلطة هي التي أسفرت عن قيام أول دولة عربية شيعيه تأسست جنوب العراق وسميت بإمارة المشعشعين كانت نهايتها على يد إسماعيل الصفوي, شاه إيران(149), بل وصل الأمر بأحد الأشخاص عام 692هـ/ 1293م ,والذي كان من مناصري دولة المماليك كونهم أعداء المغول الايلخانيين, إذ كان يصيح بعد اغتياله لأحد قادة المغول في العراق(فداء الملك الاشرف, فداء الملك الاشرف) وهو السلطان المملوكي الملك الاشرف خليل بن سيف الدين قلاوون والذي بلغت شهرته الآفاق بعد أن نجح بإسقاط آخر معاقل الصليبيين (عكا) وأخراجهم من بلاد المسلمين عام691هـ/1290م (150) ووصف صاحب الحوادث هذا الشخص بالباطني وربما يعود ذلك لشبه عمليته الاغتيالية بعمليات الإسماعيلية النزارية الفدائية ضد أعدائهم , وعدم المبالاة بالموت فبعد قيامة بقتل قائد مغولي كبير حمل منصب أمير المسلحة ,سلم إلى ابن القائد فور القبض عليه, وبعد أن مثل به وقطع أطرافه وهو حي لم يتأوه ثم قال لقاتله "يا مُخنث انك لم تصنع شيئاً إلا وهو دون ما كان في نفسي فاصنع ما بدا لك" فقتله وألقاه في المكان الذي قتل فيه أباه(151).

وأخيراً ظهرت فئة طارئة على المجتمع العراقي وعادته المؤطرة بالدين الإسلامي وهذه الفئة قررت الانسحاب من الحياة لعدم القدرة على معايشة الواقع والشعور باليأس من المستقبل, فنجد ظهور حالات انتحار في هذه الحقبة ليست قليلة بعد أن كانت معدومة قبل هذا العهد, خاصة إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار إن حالات الانتحار التي دونها صاحب كتاب الحوادث لا تمثل إلا جزءاً يسيراً من العدد الحقيقي لحالات الانتحار, فذكر عالم الاجتماع دوركايم إن حالات الانتحار تظهر حالة (الانومي) انعدام المعايير كنتيجة متوقعة للفوضى التي تعم المجتمع بسبب التغيرات السريعة (152).

فذكر صاحب الحوادث في أحداث الأعوام 678هـ, 679 هـ 688هـ" وفيها صلب شهاب الدين عمر ابن أخت صفي الدين عبد المؤمن نفسه في داره ولم يكن فقيراً ,ولا عليه دين, ولم يعلم السبب الموجب لذلك وكان شاباً حسناً"(153) "وفيها وجد في قبة المؤذن بالمدرسة النظامية رجل قد صلب نفسه "(154), وربما أراد المنتحر بإعدام نفسه في مكان يرفع فيه الأذان في أشهر مدرسة في بغداد هو إيصال صوته الذي لم يسمع في حياته وتعبيره عن حالة اليأس التي وصل إليها العراقيون, كما يعد ذلك مؤشراً على انحلال القيم الدينية التي تحرم مثل هذا العمل مهما كانت الأسباب والضغوط.

أما حالة الانتحار الأخيرة التي وردت عند صاحب الحوادث فهي من نصيب امرأة وقع على زوجها وعليها ظلم الدولة إذ طالبته بأموال لا يملكها أو يعرض نفسه للعقوبة, ففضلت الزوجة الموت على التعرض للتشهير والعقوبة والتعذيب فذكر "صلبت أمراه نفسها في دارها بمحلة الجعفرية ببغداد وكان سبب ذلك إن زوجها قيل عنه وجد مالاً في داره فطالبه الديوان بما لا تمتد يده إليه, فخافت أن تؤخذ وتعاقب وتفتضح ,فقتلت نفسها" (155).

وبخصوص أوضاع المرأة في العراق عهد الاحتلال المغولي, فقد كانت أسوء حالا من الرجل فهي تمثل الطرف الأضعف والأكثر تأثراً لا تأثيراً بالمتغيرات الاجتماعية التي تطرأ عليه, ورغم النصوص المتناثرة والنادرة عن أوضاع المرأة تلك الحقبة, والتي لم تسعفنا لبناء صورة واضحة عنها, غير انه في الغالب تعرضت إلى نوعين من الضغوط الأول المتمثل بقسوة الحياة التي عانى منه المجتمع عموماً والثانية, ضغط المجتمع والأسرة المتمثل بالزوج أو الأخ أو الأب, ففي تصورنا أنها أجبرت على الجلوس في البيت كي لا تتعرض لأي اعتداء من المغول الغير منضبطين بأي أعراف أو دين يحرم هذا الفعل تجاه الشعوب الخاضعة لهم, ويظهر ذلك من خلال ما أورده بعض المستشرقين على لسان جنكيزخان قوله "إن أعظم سعادة هي إن تنزل الهزيمة بأعدائك وتسوقهم أمامك كالقطيع وأحبائهم يذرفون الدمع عليهم وأن تركب خيولهم وتسبي زوجاتهم وبناتهم"(156).

وذكر ابن الأثير ما تعرضت له نساء بخارى على يد المغول وهو بطبيعة الحال ينطبق على بقية المدن التي تعرض لها المغول بالغزو ومنها العراق بقوله "واقتسموا النساء ايضا، وارتكبوا من النساء العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون إن يدفعوا شيئاً مما نزل بهم, فمنهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل"(157) .

كما تشير رواية أوردها النسوي إن نساء جلال الدين منكبرتي بن محمد خوارزمشاه سلطان الدولة الخوارزمية فضلن الموت على الوقوع أسرى بيد المغول ,فعند عودته إلى السند مكسوراً من قبل جنكيزخان "رأى والدته, وأم ولده, وجماعه من حرمه يصحن بأعلى صوتهن بالله عليك اقتلنا, وخلصنا من الأسر, فأمر بهن فأغرقن, وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب"(158) .

وترد رواية من عهد السلطان كيخاتو قيام الأمير بايدو بسلب ونهب في مدينة واسط كان من بين ما نهب النساء, مما أثار غضب السلطان كيخاتو, فأمر بسجن بايدو ثلاثة أيام, وأطلق سراح من وقع أسيراً بيده (159),وهذا يعد مؤشراً مهماً على بدأ تأثر المغول بأعراف الدول التي خضعت لسلطانهم لاسيما بعد دخول سلاطينهم الاسلام.

وهكذا تردت مكانة المرأة في المجتمع العراقي بعد إن احتلت مكاناً ميزها عن بقية نساء العالم آنذاك بفضل تعاليم الإسلام ومساواتها بالرجل فكان لها دوراً لا يستهان في مجال نشر الحديث والعلم, طيلة العهود السابقة للاحتلال.

ولا نجد من النصوص التي وردت في كتاب الحوادث إلا نصوصاً سلبية تظهر فيها ترتكب الفاحشة في رمضان أو تتفق على قتل زوجها, أو خيانته (160),وحتى أقدامها على الانتحار, ولعل هذه الحالة أول حالة انتحار تسجل في تاريخ العراق طيلة حقبه السابقة, وذلك عام679هـ/ 1280م في مدينة بغداد (161) وقد لا تكون الحالة الوحيدة.

وهذه الحالات لا تدلل قطعا إلى ما آلت إليه المرأة العراقية بالقدر الذي يعكس عزلتها عن المجتمع بحيث لا يرد عنها سوى هذه الإخبار البعيدة عن عُرف وديانة غالبية المجتمع العراقي.

ومع ذلك فقد كانت هناك نساء مثلن شخصية المرأة العراقية الأصيلة, فذكرها صاحب الحوادث في وفيات عام679هـ/ 1280م وهي "شمس الضحى الشاه لبنى بنت عبد الخالق بن ملكشاه بن أيوب زوجة علاء الدين عطا ملك الجويني صاحب الديوان, كانت كثيرة الصدقات, والإحسان, والمبرات ,كانت تحب أهل بغداد وترى مصالحهم, وتقوم على سد حوائجهم وتساعدهم وكانت أولاً لأبي العباس احمد بن الخليفة المستعصم بالله, وهي والدة ابنته الرابعة التي تزوجها شرف الدين ابن الصاحب شمس الدين محمد بن الجويني (162).

ونستشف من قلة ما ورد لنا من نصوص متعلقة بالمرأة بأن دورها اقتصر في هذه المدة على بيتها ,والاهتمام بواجباتها اليومية ,ورعاية أطفالها لتصبح هذه الصورة النمطية ملتصقة بها حتى بعد زوال الاحتلال, ولم تتحرر منها إلا في فترة قريبة ,غير إنها ما تلبث إن تظهر في حالة النزعات المسلحة الداخلية وفقدان الأمن, والسلطة المركزية القوية.

ورغم التأثيرات التي تركتها أعراف المغول وقسوتهم المفرطة على المجتمع العراقي, فقد كان تأثير المغلوبين اكبر بكثير.

وفيما يخص الايلخانيين فقد اندمجوا بحضارة العراقيين أو الإيرانيين, فاعتنقوا الديانة الإسلامية وخففوا الكثير من غلوائهم وقسوتهم واخذوا على عاتقهم القيام بنشر الإسلام لاسيما في المناطق التي لم يصل إليها الإسلام من قبل(163) إذ وقف المغول مذهولين أمام حضارة الإسلام بعد أن هدأت فورة فتوحاتهم فشدتهم حياة المدن وأساليب معيشتهم ,ولذا لم يكن مسألة اندماج المغول بمجتمعات الشعوب التي أخضعوها إلا مسألة وقت, وأصبحوا بالتدريج جزء من شعبها وسكانها (164) فتزاوجوا من السكان الأصليين كما المح إلى ذلك ابن فضل الله العمري" وأهل المملكة قد داخلهم العجم وزوجوهم, وتزاوجوا منه م"(165) ونفهم من هذا النص إن التزاوج قد اقتصر على الإيرانيين, أما عرب العراق فلا ترد إشارات على ذلك ,ولعل مرد ذلك ,أن المجتمع العراقي يأنف حدوث تصاهر بينه وبين المُحتل, وتجذر هذه الصفة فيه, منذ الاحتلال البويهي, ومن ثم السلجوقي فقد رفض الخلفاء العباسيين الزواج ببنات أمرائهم وسلاطينهم رغم الضغوط التي مورست عليهم عدا بعض الزيجات النادرة على عهد السلاجقة, والتي تمت بالإكراه (166), وربما استمد المجتمع العراقي هذه الصفة من خلفاءه, فكما يقال في الأثر الناس على دين ملوكها.

الخاتمة

عملت طبيعة الحياة القاسية التي عاشها المغول في منغوليا, على جعلهم من أقسى الشعوب, وأكثرها تحملاً للجوع ,الظروف الصعبة, كما إن قبائل المغول شهدت صراعاً فيما بينها, مما جعلها قبائل قتالية من الطراز الأول, استخدمتهم الدول المجاورة كمرتزقه في جيوشهم كالكرايت, والقرحطاي.

واستطاعت شخصية فريدة من نوعها وهي جنكيزخان من توجيه هذه القسوة المغولية اللامتناهية باتجاه العالم المحيط بهم, وإلى ابعد مدى ممكن إن يصلوا إليه بهدف السيطرة على كل الطرق التجارية التي كانت معروفة آنذاك وخاصة طريق الحرير, في حين جعل هذه القسوة تنعدم فيما بينهم من خلال الأعراف التي أطرها على شكل قوانين , والتي عرفت بالياسا ,والتي جعلتهم كأداة طيعة في يديه وفي نفس الوقت سيفاً مسلولاً على رقاب الشعوب التي يقهرونها.

وبعد أن تمت ما يقارب 75% من فتوحات المغول على يديه, وما تبقى جرى على يد أولاده وأحفاده, ومن بينها العراق وإيران, التي أسس فيها هولاكو دولة مغولية تابعة للإمبراطورية الأم, سماها الدولة الايلخانية.

رافق ذلك حمامات من الدم التي لم تشهد البشرية مثيلاً لها من ناحية أعدادها الكبيرة وبشاعتها التي لم يُرحم خلالها طفل أو امرأة أو شيخ كبير.

وباستقرار المغول في العراق ,وبما عرف عنهم من طبائع وعادات بغيضة استقرت معهم عدد ليس بالقليل من أعرافهم وطبائعهم وعاداتهم ,واختلطت بأعراف العراقيين.

وأول ما ترتب عن هذا الغزو انخفاض رهيب في أعداد سكان العراق الذين قضوا نحبهم على يد المغول, ورافق ذلك جزر حضاري منقطع النظير على طول التاريخ الوسيط للعراق, رغم محاولات ولاة العراق ,لاسيما الجويني لإنعاش تلك الحضارة, من خلال إنشاء مدارس جديدة واستقطاب المدرسين والعلماء للتدريس فيها.

ومن ابرز إفرازات ذلك العصر ظهور عادات جديدة ومستهجنة في سلوكيات طبقة لا يستهان بها من المجتمع العراقي ,فظاهرة السلوك الجمعي, المتمثل باجتماع مجموعة من الناس, للمشاركة في أعمال التشهير والإعدام ,فيمن صدرت بحقهم عقوبات ,فكانوا يشاركون بأعمال التمثيل بالأحياء والموتى ومن دون وجود واعز ديني أو أخلاقي, أو رحمة تحول دون قيام مثل هذه الأفعال, بل نجد من يتنافس من اجل إلحاق اكبر الضرر بالمجني عليه ,أو حتى الظفر بأحد أجزاء جثته.

كما شهد عهد الاحتلال المغولي ضعف في التمسك بمبادئ الشريعة الإسلامية بل حتى المجاهرة بارتكاب جريمة كجريمة الزنا شهر رمضان المبارك, خاصة بعد اضمحلال طبقة رجال الدين في السنوات الأولى من الاحتلال ليترك المجال واسعاً للمشعوذين ,ومن امتهنوا السحر, والمنتفعين الطفيليين ممن يعيشون على بناء مقامات وهمية ,لاستغلال البسطاء من الناس بدعوى تحقيق مرادهم, إذا ما زاروها إلى درجة كاد أن ينسلخ الإسلام الحقيقي عن العراقيين.

اكتسب المجتمع العراقي عهد الاحتلال المغولي مسألة استبعاد ومعاداة للفئات الدينية ذات الأقلية العددية, سواء كانوا من المسيحيين أو اليهود, وذلك بالاعتداء عليهم وعلى ممتلكاتهم, مؤسسة لما يسمى (بالفرهود),الذي عرف بهذا الاسم في العهود الحديثة كمرادف لعمليات السرقة الجماعية.

ويضاف إلى هذا وذاك إن ما رافق الاستيطان المغولي من فوضى معيارية, أدخلت سلوكيات لم تكن معهودة من قبل على المجتمع العراقي, ألا وهي ظاهرة الانتحار, الذي لم يكن إلا تعبيراً إلى حالة اليأس التي وصل إليها العراقيون, نتيجة ما وقع عليهم من ظلم, وإذلال على يد المغول الايلخانيين, وسقوطهم من قمة الحضارة عهد الخلافة العباسية إلى قاعها, على يد قبائل رعوية لم يكن لها أي دور حضاري سابق ,ولم تعهد حياة التمدن والاستقرار ,بل أقحمت حياتهم المتنقلة الرعوية إلى داخل مدن العراق, بعد أن أصبحت بمثابة مشتى للخان المغولي. وتسبب القرن المغولي الذي كان فيه العراق قابعاً تحت الاحتلال الايلخاني, في تفكك المجتمع العراقي وتباينت طبقاته مادياً وثقافيا, إذ انقسم إلى طبقتين الأولى وهي الطبقة الارستقراطية الإدارية من رجال الإدارة, فضلاً عن القضاة والأطباء, والبرجوازيين من التجار.

وماعدا هؤلاء يمكن وضعهم في خانة الطبقة الثانية الفقيرة والتي كانت تسمى ب (العوام),والذين كانوا يمثلون أكثر من 90% من الشعب, ولم يكن هناك رابط يربط الطبقتين, إلا اللهم قيام الطبقة الأولى بابتزاز الطبقة الثانية لصالح المغول لاستيفاء مستلزماتهم المالية, أو الإنعام عليها في بعض الاحيان.

الهوامش والمصادر

* الأعراف ومفردها (عرف - Mors) وفي اللغة هو كل شيء ظهره وأعاليه فيقال عرف الرمل, والجبل, ومنه عرف الديك, والعارفة, والمعروف ضد المنكر وهو كل ما تعرفه النفس من خير وتأنس وتطمئن أليه,وعلى العموم فأن هذه الكلمة تستعمل في العربية لكل ما أرتفع من المحسنات وكرم المعاني, أما أصطلاحاً فيراد به القواعد التي يدرج الناس على إتباعها في بيئة معينه ويسيرون حسب مقتضاها في معاملاتهم مع شعورهم بلزوم احترامها والخضوع لأحكامها, ويمكن إن نصف العرف بعبارة ثانية بأنه استقرار العمل بقاعدة معينه مع الاعتقاد بلزومها وعدم الخروج عليها, عبد الرحمن البزاز, مبادئ أصول القانون,ط2 (بغداد, مطبعة العاني,1958م)ص121,وهبه الزحيلي, العرف بين الشرع والقانون, موقع التربية والحياة www.kanatatakj.org

(1) محمد صالح داود القزاز, الحياة السياسية في العراق عهد السيطرة المغولية(النجف, مطبعة القضاء,1970م) ص6.

(2) المصدر نفسه,ص6.

(3) م.ن,ص6.

(4) علاء الدين عطا ملك الجويني(ت681هـ/1283م)تاريخ فاتح العالم,جهانكشاي,ط1(حلب,دار الملاح للطباعة والنشر,1985م) مج1,ص6 .

(5) احمد بن يوسف القرماني, اخبار الدول وآثار الأول في التاريخ, دراسة وتحقيق: احمد حطيط ,فهمي سعد ط1(بيروت,عالم الكتب,1992م) مج2,ص487.

(6) جوانفيل حياة القديس لويس,الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية,أعداد,وتحقيق وترجمة:سهيل زكار(دمشق,دار الفكر للطباعة والنشر,1999م)ج36,ص179-180.

(7) غريغوريوس ابو الفرج بن هارون الملطي (685هـ/1286م)تاريخ الدول السرياني, نشر بقلم الاب اسحق ارملة السرياني,مجلة المشرق,1956م,ألسنه الخمسون,ص456, 421.

(8) ينظر Michael Prawdin,The mongol empire(London,1953)p.91: محمد سهيل طقوش,تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند,(بيروت,دار النفائس,2007م)ص99-101.

(9) الجويني, تاريخ فاتح العالم,مج1,ص62.

(10) تاريخ الدول السرياني,ص422.

(11) قطب الدين محمد بن أحمد البعلبكي(ت726هـ/1326م)ذيل مرآة الزمان,ط1(حيدر آباد-الدكن,مطبعة دائرة المعارف العثمانية,1374هـ/1954م)ج1,ص86

(12)جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن الحنفي المصري(ت911هـ/1505م)تاريخ الخلفاء,تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد,ط3(القاهرة, مطبعة المدني,1964م)ص467

(13)عباس العزاوي,العراق بين أحتلالين(بغداد,مطبعة بغداد,1935م)ج1,ص131.

(14)تاريخ فاتح العالم,مج1,ص62.

(15) عماد الدين إسماعيل بن عمر أبو الفداء القرشي(774هـ/1373م)البداية والنهاية في التاريخ,ط2 (بيروت, مكتبة المعارف,1977م)ج13.ص117-118

(16)جوانفيل, حياة القديس لويس, الموسوعة الشاملة,ج36,ص176-177 .

(17) المرجع نفسه,ص180.

(18) أخبار الدول,مج, 2,ص489-490

(19) العزاوي,العراق بين احتلالين ج1,ص131.

(20) المرجع نفسه,ج1,ص132

(21)فؤاد عبد المعطي الصياد, المغول في التاريخ (بيروت,دار النهضة العربية للطباعة والنشر,1970م)ج1,ص339.

(22) القزاز,ص14,17.
(23) ابن العبري, تاريخ الدول السرياني,ص456.
(24) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري ابن الأثير (ت630هـ/1232م)الكامل في التاريخ, تحقيق:محمد يوسف الدقاق,ط1 (بيروت,دار الكتب العلمية,1407هـ/1987م)مج10,ص399.
(25)تاريخ فاتح العالم,مج1,ص61-62
(26) شهاب الدين أبو العباس احمد بن يحيى (ت749هـ/1349م)مسالك الإبصار في ممالك الأمصار,تحقيق:محمد عبد القادر خريسات,عصام مصطفى هزايمه,يوسف أحمد بن ياسين(العين,مركز زايد للتراث والتاريخ,2001م)ج3,ص74.
(27) فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد,تاريخ الترك في آسيا الوسطى,ترجمة:احمد السعيد سليمان,مراجعة:ابراهيم صبري,مقدمة:احمد السعيد(القاهرة,مكتبة الانجلو مصرية,1958م)ص14
(28) ابن الأثير,الكامل في التاريخ,ج10,ص405,غريغوريوس ابو الفرج بن أهرون المعروف بأبن العبري(ت685هـ/1286م)تاريخ مختصر الدول,ط2(بيروت,المطبعة الكاثوليكية,1890م)ص409
(29) الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل(ت732هـ/1331م)أبو الفداء,المختصر في أخبار البشر(القاهرة,المعارف, بلا. ت)ج3,ص159.
(30) أخبار الدول,مج2,ص491 ,492.
(31) المصدر نفسه,مج2, ,493.
(32) ينظر ابن العبري,تاريخ الدول السرياني,ص441, القرماني,اخبار الدول,مج2,ص493,آرمينيوس فامبري,تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر,ترجمة:احمد محمود ساداتي,راجعه:يحيى الخشاب(القاهرة,مكتبة نهضة الشرق,1987م)ص171
(33) جويني,تاريخ فاتح العالم,ج1,ص101,تاريخ ابن العبري, تاريخ مختصر الدول,ص41
(34) ابن العبري,تاريخ مختصر الدول,ص480
(35) التاريخ المعزو للقائد الارمني ابن سمياط,الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية,أعداد,وترجمه وتحقيق:سهيل زكار(دمشق,دار الفكر, 1999م)ج36,ص331.
(36) ابن العبري,تاريخ مختصر الدول,ص480
(37) تاريخ فاتح العالم,ج1,ص135,138
(38) محمد بن احمد النسوي(أنجز كتابه سنة 667هـ/1268م)سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ,نشر وتحقيق:حافظ احمد حمدي(القاهرة,دار الفكر العربي,1953م)ص114-115
(39) الجويني,تاريخ فاتح العالم,ج1,ص218
(40) رشيد الدين,جامع التواريخ,مج1,ج1,ص307
(41) تاريخ الدول السرياني,ص445-446
(42)فامبري,مرجع سابق,ص 174-175
(43) Rene Grousset,Lempire des steppes(Paris,1952)p.300
(44) ينظر جامع التواريخ,مج2,ج2,ص33
(45) ينظر ابن شداد,الاعلاق الخطيره,قسم الجزيرة,ص16,محمد سعيد رضا,"ابن شداد كتابه الاعلاق الخطيرة"قسم الجزيرة "دراسة وتحليل مع نصوص المخطوط", مجلة المؤرخ العربي,بغداد, اتحاد المؤرخين العرب,1980,العدد14,ص174-175
(46) عباس عبد الستار عبد القادر الزهاوي,"حادثة أتترار وتداعياتها على العالم الإسلامي",مجلة الأستاذ,كلية التربية ابن رشد ,2006م,العدد(56)ص288-290
(47) محمد بن أحمد(أنجز كتابه سنة 667هـ/1268م),سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي(القاهرة,دار الفكر العربي,1953م)ص91.

(48) الجويني,تاريخ فاتح العالم,ج1,ص65-66.
(49) جامع التواريخ,مج1,ج2,ص322-323.
(50) ابوشامه ,الذيل على الروضتين,ص205,ابن كثير,البداية والنهاية,ج13,ص,الصياد,المغول في التاريخ,ص293
(51) محمد بن شاكر الكتبي(ت764هـ/1362م)فوات الوفيات,تحقيق:أحسان عباس (بيروت,دار صادر'بلا. ت)ج21,ص71
(52) ينظر ابن فضل الله العمري,مسالك الإبصار,ج3,ص143والقلقشندي,صبح الأعشى ,ج4,ص227,الصياد,المغول في التاريخ,ص351
(53) رشيد الدين فضل الله الهمذاني,,جامع التواريخ,تاريخ المغول الايلخانيون,تاريخ أبناء هولاكو من آباقا حان إلى كيخاتو خان ,نقلة إلى العربية :محمد صادق نشأت,فؤاد عبد المعطي الصياد,راجعه:يحيى الخشاب,صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد,راجعه :يحيى الخشاب(الجمهورية العربية المتحدة,وزارة الأوقاف والإرشاد القومي,بلا. ت)مج2وج2,ص12والقلقشندي,صبح الأعشى,ج4,ص423
(54) ابن فضل الله العمري,مسالك الأبصار,ج3,ص134,القلقشندي,صبح الأعشى, ج4,ص227
(55) مؤلف مجهول,الحوادث,ص 410
(56) رشيد الدين,جامع التواريخ,مج2,ج2,ص99
(57) رشيد الدين ,جامع التواريخ,ص330
(58) القلقشندي , صبح الأعشى,ج4,ص423
(59) المصدر نفسه,ج4,ص427
(60) الصياد,مرجع سابق,ج1,ص345
(61) مسالك الأبصار,ج3,ص141
(62) ينظر جامع التواريخ,مج2,ج2,ص85
(63) جويني,فاتح العالم,ج1,ص63,ابن فضل الله العمري,مسالك الأبصار,ج3,ص78,الصياد,مرجع سابق,ص344.
(64) "جنكيزخان"دائرة المعارف الإسلامية, نقلها إلى العربية:محمد ثابت الفندي,أحمد الشنتناوي,ابراهيم زكي خورشيد,عبد الحميد يونس (القاهرة,دار الشعب,1933م)مج7,ص136-139.
(65) مؤلف مجهول,الحوادث,ص405,جعفر خصباك,العراق عهد المغول الايلخانيين,ص453.
(66) الصياد,ج1,ص325.
(67) فوات الوفيات,مج3,ص250,القزاز,الحياة السياسية ,ص173.
(68) جامع التواريخ,مج2,ج2,ص56.
(69) الصياد,مرجع سابق,ص355.
(70) جويني,تاريخ فاتح العالم,ج1,ص193.
(71) الصياد, المغول في التاريخ,ص341.
(72) فاتح العالم ,ج1,ص193.
(73) رشيد الدين,تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاي قاآن إلى تيمور قاآن,نقله إلى العربية:فؤاد عبد المعطي الصياد,راجعه وقدم له :يحيى الخشاب,ط1(بيروت,دار النهضة للطباعة,1983م)مج1,ج2,ص289-290
(74)جويني,فاتح العالم,ج1,ص191-192,جامع التواريخ,مج1,ج2,ص74
(75) فوزيه دياب,القيم والعادات الاجتماعية(القاهرة,مكتبة الانجلو مصرية,1969م)ص193
(76) ابوحيان التوحيدي,الإمتاع والمؤانسة,ج2,ص151,شبكة المعلومات,Islamic Book.ws,2010
(77) ابوحيان التوحيدي البصائر والذخائر,ج1,ص106,شبكة المعلومات,Islamic Book.ws,2010
(78),ص3.
(79) مؤلف مجهول من القرن الثامن الهجري,كتاب الحوادث ,وحققه وضبط نصه وعلق عليه:بشار عواد معروف,عماد عبد السلام رؤوف,ط1(قم,مطبعة شريعة, 1996م)ص356.

(80) تاريخ فاتح العالم,ج1,ص111
(81) بيبرس المنصوري(ت725هـ/ 1314)مختار الأخبار في تاريخ ألدوله الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ,تحقيق:عبد الحميد صالح حمدان,ط1(القاهرة,الدار المصرية اللبنانية,1993م)ص10.
(82)مؤلف مجهول,ص357.
(83) ينظر عبد الرحمن فرطوس حيدر,الايلخان هولاكو ودوره في نشأة وقيام الدولة الايلخانية,أطروحة دكتوراه غير منشوره,كلية الآداب,جامعة بغداد,2003م)ص161-162
(84) Edward G.Browne,Aliterary history of Persia from fridwst to said first published(london,1906)vol.2,p.463
*يعد عالم الاجتماع غوستاف لوبون Gustav lebon(1841-1931م)أول من تنبه لهذا النوع من السلوك لدى الجماعات ووضح ذلك في كتابه (الجمهور)وعرفه بأنه اجتماع أشخاص مهما كانوا,أومن الجنسين ومهما كانت قوميتهم ومهنتهم ومهما كانت المصادفة التي جمعتهم يكسب على أثرها هذا اللفيف صفات جديدة مختلفة أشد الاختلاف عن صفات كل فرد من هذا اللفيف, فتتلاشى الشخصية الشاعرة وتتألف روح مشتركه مؤقتة لكنها ذات صفات واضحة ويسيرون على وجه يخالف ما يشعر به ويسير عليه كل واحد,إذ يقل تأثير القوانين والنظم في طبيعة الجماعات المندفعة, ينظر غوستاف لوبون, روح الجماعات,ترجمة:عادل زعيتر(القاهرة,المطبعة العصرية,بلا.ت)ص141,فوزيه العطية,علم النفس الاجتماعي(بغداد,وزارة التعليم العالي,1992م)ص92-93
(85)حاتم الكعبي, السلوك الجمعي(الديوانية,مطبعة الديوانية,1973)ص141
(86) الحوادث,ص.385.
(87)ا لمصدر نفسه,ص536.
(88) م.ن,ص548.
(89) م.ن,ص548.
(90) م.ن ص439.
(91) م.ن, ص539.
(92) م.ن,ص502.
(93) م.ن,ص527-528
(94) تاريخ الدول السرياني,ص263
(95) الحوادث,ص431,عباس عبد الستار ,الدولة الايلخانية عهد آباقا خان,ص100.
(96) اليونيني,ذيل مرآة الزمان,ج2,ص33,ابن فضل الله العمري, مسالك الأبصار,ج3,ص75,القلقشندى,صبح الأعشى,ج4,ص310,312
(97) اليونيني,ذيل مرىآة الزمان,ج1,ص362-363,زين الدين عمر بن الوردي(ت749هـ/1348م)تاريخ ابن الوردي (النجف,المطبعة الحيدريه,1969م)ج,ص295
(98) ينظر:Grousset,lempire des steppes,p.327؛شبولر,المغول في التاريخ,ص 47, 58؛الزهاوي,أحداث الغزو المغولي من المنظور الاستشراقي,ع192, ص167.
(99) Grousset,op.cit,p.431
(100) صباك,ص,205
(101) مؤلف مجهول,ص501,جامع التواريخ,مج2,ج2.
(102) الحوادث,ص385,خصباك,ص190-191
(103) ابن العبري, تاريخ الدولة السرياني,ص150,خصباك,العراق,ص191-192.
(104) ابن العبري ,تاريخ الدول السرياني,ص398
(105) تاريخ الدولة السرياني,ص394-399, مؤلف مجهول,الحوادث,ص501,خصباك,ص204
(106) الحوادث, ص502.
(107) الحوادث,ص476,خصباك,ص205.
(108)الحوادث,ص492,خصباك,ص205.

(109) الحوادث,ص503.
(110) الجويني,تاريخ فاتح العالم,ج1,ص125,135,159.
(111) ابوالفداء,المختصر في أخبار البشر,ج4,ص133.
(112) المصدر نفسه,ج4,ص133.
(113) رشيد الدين, جامع التواريخ,مج2,ج2,ص35.
(114) المصدر نفسه,ص331.
(115) الحوادث,ص452.
(116) المصدر نفسه,ص516.
(117) نبيل رمزي اسكندر,الأمن الاجتماعي وقضية الحرية(الإسكندرية,دار المعرفة الاجتماعية,1988م)ص81.
(118) عدنان ياسين مصطفى,سوسولوجيا الانحراف في المجتمع المأزوم العراق أنموذجاً ,ط1(الأردن,إثراء للنشر والتوزيع,2011م)ص11.
(119) غاستون بوتول,ظاهرة الحرب,ترجمة:ايلي نصار,ط1(بيروت,دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع,2007م)ص111.
(120) غاستون بوتول,هذه هي الحرب ,ترجمة:مروان القنواتي(بيروت,منشورات عويدات,1981م)ص268
(121) ينظر حاتم الكعبي,ومحمد المشاط,مبادئ علم الاجتماع وط2(بغداد,مطبعة العاني,1967م)ص184.
(122) الحوادث,ص441.
(123) المصدر نفسه,ص441.
(124)رشيد الدين,جامع التواريخ ,تاريخ محمود غاران,دراسة وترجمه:فؤاد عبد المعطي الصياد www.kotobarabua.com
(125) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن كثير,البداية والنهاية(القاهرة,مطبعة السعادة,1932م)ج4,ص97-99
(126) أبو الفداء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل(732هـ/1331م),المختصر في أخبار البشر ط1(القاهرة,دار المعارف, بلا.ت)ج4,ص133,خصباك,العراق,ص245
(127) الحوادث,ص405,422
(128) البداية والنهاية,ج13,ص285
(129) الزهاوي,الدولة الايلخانية عهد آباقا خان,ص101
(130) الحوادث,ص394-395,الزهاوي,ص101
(131) أبو البركات الناصري محمد بن احمد بن إياس الحنفي(930هـ/1523م)بدائع الزهور وقلائد الدهور,المعروف بتاريخ مصر,تحقيق:محمد مصطفى ,ط2(القاهرة,الهيئة المصرية العامة للكتاب,1982م)ج1,ص318-319,أحمد مختار العبادي,قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام,ص180-187.
(132) جامع التواريخ,مج2,ج2,ص340,عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد(684هـ/1285م)تاريخ الملك الظاهر, بأعتناء:احمد حطيط(فسبادن,دار فرانز شتايز,1983م)ج31,ص171.
(133) ينظر جعفر خصباك, العراق عهد المغول الايلخانيين,169-170.
(134) الحوادث,ص516.
(135) ابن فضل الله العمري,مسالك الأبصار,ج3,ص140,القلقشندي,صبح الأعشى,ج4,ص425.
(136) مسالك الإبصار,ج3,ص141,القلقشندي,صبح الأعشى,ج4,ص427.
(137) ينظرا لحوادث,ص406,410,422,426,480,483, نافع توفيق العبود,مدارس المدن العراقية خارج بغداد عهد الاحتلال الايلخاني,دراسات في التاريخ والآثار,مجلة جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق(بغداد,دار الحرية للطباعة,1981م)ص239-256 .
(138) مؤلف مجهول,الحوادث,ص.467

(139) رشيد الدين,جامع التواريخ,تاريخ غازان خان,جامع التواريخ,دراسة وترجمه:فؤاد عبد المعطي الصياد,ص477.
(140)خصباك,ص239.
(141)أرنست رينان,ابن رشد والرشدية,نقلة إلى العربية:عادل زعيتر(القاهرة,دار أحياء الكتب العربية,1957م)ص66.
(142) الحوادث,ص373,خصباك,مرجع سابق, ص241.
(143) الحوادث,ص441.
(144) ينظر الحوادث,ص 441.
(145) اسكندر,ص86
(146)المرجع نفسه,ص85-91.
*ظهرت هذه الفئة عهد هارون الرشيد وكانت في بداية أمرها مسالمة امتهنت الحمالة والاستجداء وبرز دورهم مدة الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون سنة 196هـ/ 811م مكونه ما يعرف عند مؤرخي ذلك الزمن بحركة (العيارين والشطار), التي وان كانت مرفوضة من الناحية السلطوية فأنها مقبولة من الناحية الاجتماعية, ويعد أصحابه من الإبطال في نظر العامة تلهج بذكرهم فهي تنظر إليهم والى تمردهم أو ثورتهم على الدولة والمجتمع باعتبارهم يمثلون ثورة الفقراء على الأغنياء والأمر في الحالتين يعني تمرداً سياسياً,واقتصادياً, واجتماعياً, فهي حركات سياسية شعبية ذات طابع اقتصادي, ينظر محمد رجب النجار, حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي(الكويت,المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب,1981م)ص20-25,85.
(147) الحوادث,ص441
(148) المصدر نفسه,ص475-476
(149) ينظرمحمد هليل الجابري ,إمارة المشعشعين, رسالة ماجستير غير منشوره ,كلية الآداب, جامعة بغداد,1973م)
(150) ابوالفدا, المختصر في أخبار البشر,ص34-35, شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي(ت748هـ)تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام,ط1(بيروت,دار الكتاب العربي,2000م)ج51,ص44,تقي الدين أحمد بن علي المقريزي(ت845هـ)السلوك لمعرفة دول الملوك,ط1(القاهرة,1941م)ج1,ق3,ص.664
(151) مؤلف مجهول,ص514 .
(152) اسكندر,مرجع سابق,ص110.
(153) الحوادث,ص498
(154) المصدر نفسه, ص445.
(155) م.ن,ص450.
(156) C.Dhsson,Histore des Mongols(Amistrdam,1834)vol.1,p.404,Henry Howorth, history of the Mongols(London,1876)vol.1,p.110
(157) ابن الأثير,الكامل,ط4(بيروت,دار الكتب العلمية,2003م)ج10,ص404-405 ,فامبري, تاريخ بخارى,ص172-173.
(158)محمد بن أحمد (أنجز كتابه سنة 667هـ/1268م)سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي,نشر وتحقيق:حافظ أحمد حمدي (القاهرة,دار الفكر العربي,1953م)ص158-159.
(159) الحوادث,ص516.
(160) المصدر نفسه ,ص450.
(161) م.ن,ص450.
(162) م.ن,ص447.
(163) بارتولد,تاريخ الترك في آسيا الوسطى,ترجمة:احمد السعيد سليمان,مراجعة:ابراهيم صبري,مقدمة :أحمد السعيد(القاهرة,مكتبة الانجلو مصرية,1958م)ص15.

(164) رجب محمد عبد الحليم,انتشار الإسلام بين المغول,ص62,65,177.
(165)مسالك الابصار,ج3,ص92.
(166) ينظرجزيل عبد الجبار الجومرد,طارق فتحي سلطان(الموصل,دار الكتب للطباعة والنشر,2001م)ص157,عصام محمد شبارو,السلاطين في المشرق العربي(بيروت,دار النهضة العربية للطباعة,1994م)ص24.